# الفكر النقدي
# بين التراث والمعاصرة
## "نحو نظرية عربية معاصرة في النقد الأدبي"


## أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وأستاذ الأدب والنقد غير المتفرغ بجامعة الأزهر الشريف


بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}
(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد :

فإن العلاقة بين التراث والمعاصرة في الفكر النقدي – شأن كثير من المتقابلات – ليست علاقة عداء أو قطيعة ، ولن تكون ، ولا ينبغي أن تكون ، وإن الوسطية التي نحملها منهجًا ثابتًا في كل مناحي حياتنا ، ونجعل منها ميزانًا دقيقًا نزن بها أمورنا كلها ، إنما هي منهج ثابت ننطلق منه في كل جوانب حياتنا العلمية والفكرية والفلسفية والتطبيقية ، لا نحيد عن هذا المنهج قيد أنملة ، فقد قالوا : لكل شيء طرفان ووسط ، فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر واختل توازنه ، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان ، ونحن مستمسكون بهذا الوسط وتلك الوسطية ، لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير .

فنحن لا نتعصب للقديم لمجرد قدمه ، ولا نسلم زمام عقلنا للتقليد الأعمى دون أن نمعن النظر فيما ينقل إلينا أو يلقى علينا ، فقد ميز الله (عز وجل) الإنسان عن سائر الخلق بالعقل والفكر والتأمل والتدبر

والتمييز ، ونعى على من أهملوا هذه النعم ولم يوفوها حقها ، فقال (سبحانه) : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥]. ويقول (سبحانه) : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]، ويقول (عز وجل) : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها" (رواه ابن حبان في صحيحه).

ولا يمكن أيضًا أن ننسلخ من هذا التراث العريق أو نقف منه موقف القطيعة ، ونعمل في الهواء الطلق ، فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل ، بل علينا أن نأخذ من الماضي العريق النافع والمفيد الذي ننطلق به في الحاضر ونؤسس به للمستقبل .

وأؤكد أن في تراثنا النقدي من الفكر والثراء والتنوع ما يحتم علينا إعادة قراءة هذا التراث قراءة جديدة عصرية يمكن أن تشكل أساسًا قويًّا ومتينًا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي ، لا تنفصل عن تاريخها ولا عن هويتها ولا عن واقعها ، بل يمكن أن تكون حال نضجها أحد أهم ملامح هويتنا الواقية وخصوصيتنا الثقافية في زمن العولمة والتيارات النقدية والفكرية والثقافية الجارفة.

وكما أننا لا يمكن أن نرفض القديم لقدمه، لا يمكن أيضًا أن نرفض الحديث لحداثته، أو لكونه ثقافة الآخر أو المختلف ، أو كونه ثقافة وافدة

على ثقافتنا ، أو أن ندعو إلى الانكفاء على الذات والتمحور أو التقوقع حولها، فهذا عين الجمود والتحجر الذي نواجهه بكل قوة وحسم ، فثقافة أخرى تعني عقلاً آخر ، وإضافة جديدة ، ومادة جديرة بالاعتبار والتأمل والنظر ، بل إنني لأدعو إلى إعمال الفكر وإمعان النظر في كل ما هو عصري أو حديث أو جديد ، فنأخذ منه النافع والمثمر والمفيد ، وما يشكل إضافة حقيقية لثقافتنا ، ويتناسب مع قيمنا وأخلاقنا وحضارتنا ، ونتجاوز ما لا يتسق مع هويتنا الثقافية وقيمنا الراسخة.

كما يجب أيضًا ألا نتخلف عن الركب ، فنتشبث بآراء ونظريات ثبت عدم جدواها عند الغربيين أنفسهم ، فدعا نقادهم إلى ضرورة مراجعتها ، أو تخلوا هم عنها وبحثوا عن نظريات أو رؤى أخرى جديدة رأوها أكثر دقةً وملاءمةً ونفعًا ، أو وجدوا فيها خيط نجاة جديد يخلصهم من تعقيدات وفلسفات بعض النظريات التي خرجت بالنقد الأدبي عن لبابه إلى معالجات انحرفت بالنص الأدبي عن مساره الطبيعي إلى مسارات أخرى ربما كان من الأجدى تطبيقها على علوم وفنون أخرى غير النص الأدبي، إذ تبقى عظمة وخصوصية النص الأدبي والنقدي في كون كل منهما نصًّا ينطق أدبًا ويفيض أدبًا ويشع أدبًا قبل أي شيء آخر.

وقد حاولت في هذا الكتاب "الفكر النقدى بين التراث والمعاصرة" أن أقف عند بعض القضايا النقدية المعاصرة ذات الجذور التراثية ، وبعض القضايا التراثية فأعيد قراءتها في ضوء معطيات النقد الحديث ، لأؤكد من خلال تناولي لهذا وذاك أن العلاقة بين القديم والحديث يمكن أن تكون علاقة تكاملية ، وليس شرطًا أن تكون علاقة إقصاء أو صراع، وأنه يمكننا أن

نسج من هذا و ذاك نظرية عربية عصرية متكاملة في النقد الأدبي.

ويضم هذا الكتاب خمسة أبحاث تتكامل في تحقيق هذا الهدف ، ونؤمل أن تسهم في إنتاج النظرية التي نهدف إليها ، وقد جعلته في خمسة فصول على النحو التالي :

- الفصل الأول : المعادل اللغوي .. دراسة تطبيقية في ضوء النص القرآني .
- الفصل الثاني : دلالة السياق وأثرها في النص الأدبي .. دراسة نقدية .
- الفصل الثالث : العدول بين القدماء والمحدثين .. دراسة نقدية .
- الفصل الرابع : جدلية الحضور والغياب بين القدماء والمحدثين .. دراسة أسلوبية نقدية .
- الفصل الخامس : الفكر النقدي في المثل السائر في ضوء النقد الحديث .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان .

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

# الفصل الأول

## المعادل اللغوي
## "دراسة تطبيقية في ضوء النص القرآني"

# تمهيد

إن من أهم العقد التي ينبغي أن نتخلص منها في نقدنا الحديث أن المصطلح النقدي الحديث أو المعاصر يكتسب قيمة كبيرة إذا ارتبط بناقد أو كاتب أجنبي ، أو انبثق من نظرية أجنبية ، وأنه لا يكتسب القيمة نفسها عند كثير من الحداثيين إذا اقترن باسم الجاحظ، أو ابن قتيبة، أو ابن طباطبا ، أو قدامة ابن جعفر ، أو الآمدي ، أو الجرجاني ، أو أبي هلال العسكري ، أو المرزوقي ، أو ابن رشيق ، أو عبد القاهر ، أو ابن الأثير ، أو العلوي ، وغيرهم من أعلام النقد الأدبي العربي القديم ، ناهيك عن اقترانه باسم كاتب أو ناقد عربي حديث أو معاصر، فما ظنك إذا كان هذا المصطلح نتاج بحث وفكر لكاتب أو ناقد من غير هؤلاء الأعلام والمشاهير في سماء الإعلام العربي؟!

كل ذلك قد جعل ثقة بعض الباحثين في أنفسهم ، وجرأتهم على الإبداع وقراءتهم للتراث قراءة جديدة ، وإعادة إنتاجه وصياغته وفق رؤى عصرية جديدة مجالاً لكثير من التردد ، أو الخوض فيه على استحياء .

ومن ينظر في بعض المصطلحات النقدية الحديثة والوافدة يظن للوهلة الأولى أنها مصطلحات حداثية صرفة ، لكنه بشيء من المراجعة لكنوز التراث وذخائره يدرك أن هذه المصطلحات ضاربة بجذور راسخة في أعماق تراثنا الأدبي والنقدي ، فمصطلحات : الانحراف ، والانزياح ،

والتخطي ، والتحول ، والخروج ، والتجاوز ، والاختلال ، والإطاحة ، والانتهاك، وخرق السنن، ترد في جملتها إلى مصطلح العدول الذى ذكره ابن الأثير وغيره من النقاد العرب القدماء ، وأن كثيرًا من المصطلحات النقدية الحديثة كالحضور والغياب ، والخفاء والتجلي ، والمسكوت عنه ، ترجع في مضمونها إلى قضايا الحذف والذكر التي تناولها البلاغيون والنقاد القدماء.

ولم أتردد عندما اختمرت في ذهني فكرة المعادل اللغوي كتعبير عن إصابة المحز في التواؤم بين اللفظ والمعنى ، واعتبار هذا المصطلح النقدي تعبيرًا عن قمة المشاكلة بين اللفظ والمعنى ، التي نادى بها نقادنا القدماء .

واخترت التطبيق على النص القرآني لكونه على قمة البلاغة وفي أعلى درجاتها في تحقيق هذه المشاكلة ، ولثراء الجانب التطبيقي سواء في مفرداته اللغوية أم في تراكيبه وبناه الأسلوبية.

ويأتي تناولي لهذا الموضوع في مبحثين:

المبحث الأول: المعادل اللغوي .. تأصيل نقدي.

المبحث الثاني: المعادل اللغوي.. دراسة تطبيقية في ضوء النص القرآني.



# المبحث الأول

# المعادل اللغوي .. تأصيل نقدي

## أولاً : مفهوم المصطلح :

### أ- في اللغة:

المعادل اسم فاعل من عادل يعادل معادلة ، يقال : عادل الشيء بالشيء إذا سواه به، وجعله مثله، وقائمًا مقامه، ومنه شهادة المعادلة[1].

ويقال: هو يعدل أمره ويعادله إذا توقف بين أمرين أيهما يأتي، أي أنهما عنده مستويان تمام الاستواء لا يقدر على اختيار أحدهما ولا يترجح عنده[2] ، فكل منهما يكافئ الآخر ويعادله.

واللغوي: المنسوب إلى اللغة، وهي ما يعبر بها الناس عن معانيهم وأغراضهم ومضامينهم.

### ب – في الاصطلاح:

يقصد بالمعادل اللغوي : ما يعبر به المبدع عما يجول بخاطره ، بحيث يكون تعبيره في أعلى درجات المشاكلة والمواءمة بين لفظه ومعناه .

(١) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، مادة (عدل).

(٢) انظر: لسان العرب ، لابن منظور، مادة (عدل).

## ج – العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي:

تتمثل العلاقة بين المعنيين في قمة المشاكلة والتكافؤ بينهما، فكما أن المعادل في اللغة هو المتوقف بين أمرين لا يقدر على اختيار أحدهما على الآخر أو ترجيحه عليه فإن المعادل اللغوي ينبني على منتهى التوافق والتواؤم بين اللفظ والمعنى ، بحيث إذا ما لجأ المبدع أو الناقد إلى سائر الحقول الدلالية، وأعمل فكره، وأجال نظره، وأجهد عقله في النظر في عمليتي الاستبدال الأفقي والرأسي لعاد إلى تعبيره الأول وما استطاع هو أو غيره استبدال مفردته أو بنيته الأسلوبية بمفردة أو بنية أخرى؛ لأن المفردة أو البنية التي اختارها هي المعادل اللغوي الأنسب أو الوحيد الذي لا يقوم مقامه غيره في هذا الموضع أو ذاك.

## د- لماذا هذا المصطلح دون سواه؟

آثرت اختيار هذا المصطلح دون سواه لسببين:

أولهما: لأنه – فيما أرى – الأكثر تحديدًا ودقة وتعبيرًا عن المفهوم الذي أريده.

الآخر: الخروج من دائرة الاتساع التي يدور حولها المعادل الموضوعي وكثرة التفسيرات التي تكتنفه، فهناك من يقترب في مقاربته له من مفهومنا للمعادل اللغوي مع شيء من التوسع يتجاوز اللفظة والعبارة إلى الطريقة الكلية للتعبير عن المشاعر[1]، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: "المعادل التعبيري".

---

(١) انظر: المصطلحات الأدبية الحديثة، د/ محمد عناني ص٥٤ ، ٥٥ مطابع الأهرام التجارية

ومن هؤلاء أ. د/ محمد عناني الذي يرى أن المعادل الموضوعي عند إليوت يعني الطريقة التي تعبر عن المشاعر، وتعتبر المقابل المادي لها، لأن إليوت يقول: إنه إذا زادت المشاعر المجردة عن الأشياء المجسدة التي تعبر عنها أصبح العمل الفني غامضًا، وإذا زادت الأشياء المجسدة عن المشاعر نتج ما نسميه الإسراف الشعوري أو التهافت العاطفي، فالتعادل يعني تساوي الكفتين في العمل الفني(١) ، وهناك من ينحو في فهمه وتفسيره للمعادل الموضوعي منحى آخر يقترب به من دائرة الرمز أو القناع(٢).

وهناك من يفهم المعادل الموضوعي على أنه ما يقابل العواطف والمشاعر والانفعالات من قالب تعبيري، وهو وعاؤها المادي سواء أكان تعبيرًا ماديًّا أو رمزيًّا ، يقول أ/ محمد عزام : المعادل الموضوعي هو الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في قالب فني ، هو بناء مجموعة من الموضوعات أو المواقف أو سلسلة من الأحداث لتصبح وعاءً لهذه العاطفة الخاصة ، بحيث تتفجر هذه العاطفة في الحال عندما تقدم الأحداث الخارجية موضوعة في تجربة حسية (٣) ، وينبغي أن يكون التعادل بين

---

نشر= = الشركة المصرية العالمية، وشركة أبي الهول للنشر، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٣م.

(١) المصطلحات الأدبية الحديثة ص٥٥،٥٤.

(٢) المعادل الموضوعي في الشعر الجاهلي ، أ. د / كاظم الظواهري ص ٣٠-٣٤ ، نشر دار الهداية، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م ، وسينية البحتري : شاعرية المكان ، المعادل الموضوعي، الرسم بالكلمات، أ.د / زكريا النوني، ص ١٩، ٢٠، ط / شركة ناس، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٤م،.

(٣)المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، للأستاذ/ محمد عزام ص ٣٨، نشر اتحاد الكتاب العرب سنة ١٩٩٩م.

الشيء المادي أو الرمز وبين الانفعال الذي يثيره تامًّا [1].

ويقول : ولكن النسيج أو الهيكل المادي يقاوم التعادل العملي ، ولا يمكن للقارئ معرفة أي شيء تقوله القصيدة بعيدًا عن كلماتها، والقيمة الشعرية لا تكمن فيما تقوله القصيدة، ولكن فيما تكونه، أي الشيء المادي الذي يجعلنا ندرك انفعال الشاعر الأصلي[2].

وأرى أن الذي أدى إلى اتساع دائرة مصطلح المعادل الموضوعي واختلاف وجهات النظر في تحديد مدلوله وفي تطبيقاته أمران:

أحدهما: ما ذكره د/ محمد عناني، وهو عدم الدقة في ترجمة المصطلح ونقله إلى العربية[3].

الآخر: أن إليوت استخدم هذا المصطلح لأول مرة في مقال له عن مسرحية "هاملت" لشكسبير، فقال: إن مسرحية "هاملت" غير ناجحة من الناحية الفنية لأنها عجزت عن أن تضع لنا عواطف المؤلف في معادل موضوعي، على العكس من بعض مآسي شكسبير الأخرى الناجحة التي تتحقق فيها نظرية "المعادل الموضوعي"، ويشرح إليوت ما يقصده بهذا المصطلح فيقول: إن الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في قالب فني إنما تكون بإيجاد معادل موضوعي لها، وبعبارة أخرى مجموعة من الموضوعات، أو موقف، أو سلسلة من الأحداث، تشكل وعاء لهذه العاطفة

(١) المنهج الموضوعي في النقد الأدبي ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠.

(٣) المصطلحات الأدبية الحديثة ، د/ محمد عناني ص ٥٣.

الخاصة، بحيث تتفجر هذه العاطفة في الحال عندما تقدَّم الأحداث الخارجية موضوعة في تجربة محسة[1].

وهذا التعبير ينسجم مع البناء الروائي والمسرحي، وربما ينسجم إلى حدٍّ ما مع الشعر التمثيلي، لكن نقله برمته دون مراجعة، ومحاولة تطبيقه نصًّا على الشعر العمودي أدى إلى شيء من الخلخلة في فهم المصطلح وفي تطبيقاته.

على أن إليوت نفسه توسع في مفهوم المعادل، ليستخدمه بمعنى المكافئ أو المقابل سواء أكان تعبيرًا مقابلاً لفكر وعواطف وانفعالات تضمن رمزًا أو لا، أم كان فكرًا مقابلاً لفكر أو فنًّا مقابلاً لفن، يقول: إن النظرة إلى الحياة التي تتكشف في أنضج قصائد "ريلكه" إنما هي ضرب من المعادل الشعري لفلسفة "نيتشه"[2].

## خلاصة القول:

وخلاصة ما أميل إليه بعد هذا العرض أن إصابة المحز في مشاكلة اللفظ للمعنى إذا وقعت موقعها وجاءت في صورة رمزية أو متضمنة معنى الرمز أو معنى القناع كان الأدق فيها هو تعبير "المعادل الموضوعي" وأن هذا المصطلح يأتي أبرز ما يكون في البناء الروائي والمسرحي والشعر التمثيلي.

---

(١) انظر: في نقد شعر، د/ محمود الربيعي ، ص ١٥٧، ط/ دار غريب للطباعة والنشر بالقاهرة ، نقلًا عن مختارات نثرية لإليوت ص ١٠٢.

(٢) انظر: المختار من نقد ت. س إليوت ، اختيار وترجمة: ماهر شفيق فريد، تقديم: د/ جابر عصفور، ص ١١٧، نشر المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٠م.

أما إذا كانت هذه المشاكلة لا تتضمن رمزًا أو قناعًا وقصد بها مجرد إصابة المحز في مشاكلة اللفظ لمعناه كان الأدق هو تعبير المعادل اللغوي الذي يشمل اللفظة المفردة باعتبارها معادلاً لفظيًّا، والعبارة أو الجملة أو التركيب باعتباره معادلاً أسلوبيًّا، وأن السياق الأعم الذي يشمل المعادل اللغوي والمعادل الموضوعي معًا هو ما يمكن أن يطلق عليه "المعادل التعبيري".

## ثانيًا : الجذور التراثية للمصطلح:

يعد ابن طباطبا العلوي المتوفي سنة ٣٢٢هـ من أوائل النقاد العرب الذين نصوا على قضية المشاكلة بين اللفظ والمعنى، يقول: " وللمعاني ألفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنًا في بعض المعارض دون بعض"[(١)].

وفي حديثه عن أدوات الشعر يقول: " وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه وتكلف نظمه، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة، فمنها : التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب ... وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أَحسن زي وأبهى صورة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ١١، تحقيق: د/ عبد العزيز بن ناصر المانع، ط/ المدني ، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

السمع بمونق لفظه [1].

ثم جاء المرزوقي فجعل عمود الشعر قائمًا على سبعة أبواب، هي: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما [2].

وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى عنده طول الدربة ودوام المدارسة، فإذا حكما بحسن التباس بعضهما ببعض بلا جفاء، ولا نبو، ولا زيادة، ولا نقصان، وكان اللفظ مقسومًا على رتب المعاني فهو البرىء من العيب[3].

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد السعدي فرهود "رحمه الله" في تعليقه على نص المرزوقي: ومشاكلة اللفظ للمعنى تعني موافقته له، وقيام اللفظ بحق المعنى الذي نوى الشاعر إظهاره ، وتوفيته على الوجه الذي قصده[4].

ويؤكد الدكتور/ محمد طه عصر أن قضية المشاكلة بين اللفظ والمعنى هي بيت القصيد في تلك العمودية التي يتطلبها المرزوقي، فالشروط الستة

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٦، ٧ بتصرف.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، تحقيق : أ / أحمد أمين ، أ / عبد السلام هارون ج ١ ص ٩ ، ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ١١.

(٤) انظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا الدكتور/ محمد السعدي فرهود ، رحمه الله " ص٢١١، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

التي تطلبها المرزوقي في عمود الشعر هي مقدمة لتحقيق تلك المشاكلة؛ إذ لا تكون المشاكلة دون صحة المعنى، واستقامة اللفظ، والإصابة في الوصف، وهو شيء فطن إليه المرزوقي وقصده قصدًا، حتى كان من موطن الملاحظة أنه جعل اجتماع هذه الأوصاف الثلاثة سببًا لكثرة سوائر الأمثال وشوارد الأبيات، ولم يكن بينه وبين اعتبارها سببًا لشعرية النص إلا ضربة معول.

ثم إن المشاكلة تقتضي المقاربة في التشبيه ، ومناسبة المستعار منه والمستعار له، ومن ثم التحام أجزاء النظم والتئامها على النحو الذي قرره الأوائل وقام المرزوقي باستلهامه وإعادة صياغته في هذه الأبواب السبعة التي بنى عليها نظريته في عمود الشعر، والتي لا تعدو أن تكون شرحًا لمعيار واحد تتمحور حوله العمودية وهو المشاكلة[1].

على أن مسألة المشاكلة بين اللفظ والمعنى قد أشار إليها عدد غير قليل من النقاد القدماء والمحدثين وإن كان بصورة أقل وضوحًا ومباشرة مما ذكره ابن طباطبا والمرزوقي وأستاذنا الدكتور/ السعدي فرهود والأستاذ الدكتور/ محمد طه عصر.

يقول القاضي الجرجاني المتوفي سنة ٣٦٦هـ : وأقل الناس حظًّا في صناعة الكلام من اقتصر في اختياره ونفيه، وفي استجادته واستسقاطه على

(١) خطاب النقد العربي : بنيته ، آلياته وأنساقه المعرفية ، أ. د/ محمد طه عصر ، ص ٩٨ ، ط/ شركة ناس للطباعة ، سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

سلامة الوزن، وإقامة الإعراب، وأداء اللغة، ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظًا مروَّقًا وكلامًا مزوقًا، قد حُشيَ تجنيسًا وترصيعًا، وشحن مطابقة وبديعًا، أو معنى غامضًا قد تعمق فيه مستخرجه، وتغلغل إليه مستنبطه، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب، واضطراب النظم، وسوء التأليف، وهلهلة النسج، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها، ويسبر ما بينهما من نسب، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب[1].

فالقاضي الجرجاني يطلب من المنشئ أو المبدع ضرورة المواءمة بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يكتفي بذلك ، بل يطلب منه سبر ما بينهما من نسب وامتحان ما يجتمعان فيه من سبب، ووضع كل لفظ لما يناسبه ويتطلبه ويستدعيه من المعاني.

أما الخطابي[2] فالكلام عنده يقوم على ثلاثة أركان: لفظٍ حامل، ومعنىً به قائمٍ ، ورباطٍ لهما ناظم، ويرى أن القرآن الكريم إنما أتى في

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، ص٤١٣ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ، نشر دار الكتب العصرية ، بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م.

(٢) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، ولد سنة ٣١٩ هـ ببلدة بست من بلاد كابل، وهو عالم فقيه، وأديب لغوي ، له مؤلفات عديدة ، منها : بيان إعجاز القرآن ، وغريب الحديث، ومعالم السنن، وكانت وفاته على الأرجح سنة ٣٨٨هـ، وقيل : سنة ٣٨٦هـ. انظر في ترجمته : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص٢١٤ ، تحقيق: إحسان عباس ، ط/ دار صادر، بيروت ، سنة ١٩٦٩م، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٤ ص٢٤٦ ، ط/ دار المأمون ، سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج ٣ ص١٢٧ ، ط/ دار الفكر، ط ١، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

أعلى درجات البلاغة والإعجاز؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني واضعًا كل شيء موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه[1].

ويعلق د/ عبد العزيز حمودة على نص الخطابي بقوله: إننا هنا أمام شروط تحقق الدلالة أو المعنى، وهي وجود نسق من العلامات، كل علامة تتكون من عنصرين الدال والمدلول، وهو ما يحمله قوله: " لفظ حامل، ومعنى به قائم" ، لكن هذه العلامات اللغوية تبقى عاجزة عن تحقيق المعنى إلى أن ينظمها نظام علاقات يمكنها مجتمعة من تحقيق الدلالة ، وهو ما نفهمه من قوله: " ورباط لهما ناظم"[2].

وبهذا يتضح لنا أن قضية المشاكلة بين اللفظ والمعنى ضاربة بجذورها في أعماق تراثنا الأدبي والنقدي وأن كثيرًا من النقاد العرب في عصرنا الحديث قد نظروا بعناية واهتمام إلى تلك المشاكلة وضرورة تحققها في النص الأدبي.

ويأتي تناولنا لمصطلح المعادل اللغوي للتعبير عن تحقق هذه المشاكلة في أعلى درجاتها ، بحيث يكون التعبير اللغوي معادلاً ومكافئًا

---

(١) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي ( ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرماني والخطابي وعبد القاهر) ص ٢٩، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، ط/ دار المعارف بمصر، سنة ١٩٩١م.

(٢) المرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية، د/ عبد العزيز حمودة، ص ٢٣٣، نشر سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم (٢٧٢) ، إصدار جمادى الأولى١٤٢٢هـ / أغسطس سنة ٢٠٠١م.

للمعنى الذي أراده المنشئ أو المبدع، بحيث لو ذهبنا نبحث وننقب عن أي بديل لغوي أو أسلوبي لعاد الباحث خاوي الوفاض، مسلمًا بأن هذا المبدع قد اختار المعادل الذي لا يمكن العدول عنه أو استبداله.



# المبحث الثاني

# المعادل اللغوي.. دراسة تطبيقية في ضوء النص القرآني

## أولاً : في مجال المفردة القرآنية:

لا شك أن كل لفظة أو مفردة من مفردات القرآن الكريم قد وقعت موقعها، حيث يقتضي المقام ذكرها دون سواها أو مرادفها، فإذا جاءت الكلمة معرفة أو نكرة كان لاقتضاء المقام ذلك، وإذا جاءت مفردة أو جمعًا كان ذلك لغرض يقتضيه السياق، وقد يُؤْثر النص القرآني كلمة على أخرى وهما بمعنى واحد، ويختار كلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في أصل الدلالة، وما كان للمتروك أن يقوم مقام المذكور أو يدانيه بلاغة لو ذكر مكانه[1] ، وما ذلك إلا لكون القرآن الكريم تنزيل العزيز العليم الحكيم .

### ومن نماذج ذلك :

١ - كلمة "إِصۡلَاح" في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٌ لَّهُمۡ خَيۡرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) انظر: دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم، د/ عاطف المليجى، ص ٨، ٩ ، ط/ المؤلف، سنة ٢٠٠٢م.

لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[1].

فلو تأملنا هذه الآية جيدًا، ونظرنا - على وجه التحديد - في موقع كلمة "إِصْلَاح"، ثم فكرنا في بدائلها اللغوية ومشتقاتها وما يرادفها، وحاولنا أن نضع أي بديل لغوي - رأسيًّا أو أفقيًّا - في موضعها لوجدنا أن العربية على عمقها واتساعها عاجزة عن أن توافينا أو تمدنا بكلمة يمكن أن تقوم مقام كلمة " إِصْلَاح" في هذا الموضع.

فالإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم، فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًّا وعطاءً ماديًّا، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على زراعته أو صناعته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك، وقد لا يحتاج اليتيم إلى المال، إنما يحتاج إلى التقويم والتربية، فيكون الإصلاح هنا رعاية وتربية، وقد لا ينقصه هذا ولا ذلك، إنما تكون حاجته أشد ما تكون إلى العطف والحنو والإحساس بالأبوة، فيكون الإصلاح إشباع ذلك عنده.

وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه أو اعوجاجه ، فقد جاء أحد الناس يسأل النبي : ممَ أضرب يتيمي ؟ فقال : "مما كنت ضاربًا منه ولدك"[2].

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٠.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١٥٧/١ حديث رقم (٢٤٤) ، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ص٢٨٥ ، والبخاري في الأدب المفرد ، باب كن لليتيم كالأب الرحيم؛ لكنه ذكره موقوفًا على ابن سيرين ، وروايته : " اصنع به ما تصنع بولدك ، اضربه مما تضرب ولدك"، وذكره ابن حجر في فتح الباري ، ج ١٠ ص ٤٣٧ ، كتاب الأدب ، باب فضل من يعول يتيما ، شرح الحديث رقم ٦٠٠٥.

فالنبى ﷺ يطلب من السائل وغيره أن يعاملوا اليتيم معاملة أبنائهم، فينظروا إلى ما يصلحه ويقومه ويشد عضده، ومن هنا تلتقي البلاغة النبوية في إيجازها ووفائها بالمراد مع النص القرآني، وإن كان الحديث النبوي قد ركز على جانب واحد من جوانب الإصلاح، وهو التأديب والتقويم، فإن الإصلاح في النص القرآني هو الكلمة الجامعة لما يحتاج إليه اليتيم وما يصلحه.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ وإن كانت قد نزلت في إباحة المخالطة المشروطة بالإصلاح، فقد عبر النص القرآني بـ "إن" دون إذا، لئلا يفتح باب المخالطة على مصراعيه.

وحتى لا تنفلت الأمور، فالتعبير بـ "إن" يبقى على خيط من الحاجز النفسي لمخالطة اليتيم لتظل مخالطة حذرة، وفي حدود ما يصلح اليتيم، فالمخالطة المباحة - كما يذكر الألوسي في تفسيره - هي مداخلتهم مداخلة يترتب عليها إصلاحهم أو إصلاح أموالهم بالتنمية والحفظ، وذلك خير من مجانبتهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ أي لضيق عليكم ولم يجز لكم مخالطتهم، وأصل الإعنات الحمل على مشقة لا تطاق ثقلاً، يقال: عنته إذا شدد عليه

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الألوسي ، ج٢ ص ١١٦، ط/ دار التراث بالقاهرة ، بدون تاريخ.

وألزمه ما يصعب عليه أداؤه، وأعنته إذا أوقعه في مشقة وشدة[1] ، والكلمة هنا تشكل المعادل اللغوي الأنسب والأدق لما كان يمكن أن يترتب على منعهم من المخالطة.

وهي تحمل ضمنًا أو وفق مفهوم المخالفة مدى التيسير الرباني في إباحة المخالطة المقرونة بنية الإصلاح ، وتوحي بأن هذا التيسير ينبغي ألا يتجاوز حدود الرخصة إلى التوسع أو التجوز الذي لا يحمد عقباه.

٢ – كلمة ﴿ بِحَرْبٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[2].

فكلمة ﴿ بِحَرْبٍ ﴾ هنا وقعت موقعًا لا يمكن لأي بديل لغوي أن يقوم مقامها فيه، فهي المعادل اللغوي الأنسب والأدق، القادر على ردع النفوس المتعلقة بالمال، القابلة للربا أو المتحايلة عليه، فتعلق بعض الناس بالمال، وبخاصة الكسب السهل السريع عن طريق الربا لا يردعه إلا علم هؤلاء بأنهم إنما يحاربون الله ورسوله، وهي حرب معلومة النتائج، مدمرة لمن يتعدى حدود الله أو يخرج على شريعته، وقد سئل سيدنا عبد الله بن عباس: أي آية في كتاب الله أشد؟ فقال: لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت آية في

(١) انظر: لسان العرب ، والمعجم الوسيط: مادة (عنت) ، وروح المعاني للألوسي، ج ٢ ص ١١٧.

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ – ٢٧٩.

**كتاب الله تعالى أشد من آية الربا لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[1] ، ويقول نبينا ﷺ : "ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل"[2] .**

**٣ – كلمة ﴿ تَدَايَنتُم ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[3] .**

**ففي قوله تعالى: ﴿ تَدَايَنتُم ﴾ صيغة مفاعلة، تفيد المشاركة ووقوع الفعل من كلا الطرفين، وهما هنا: الدائن والمدين؛ مما يفيد أن الأمر بكتابة الدين موجه إليهما معًا، لا إلى الدائن فقط ، مما يجعل حرص المدين على كتابة دينه واستجابته لأمر الله تعالى في ذلك كحرص الدائن على ذلك سواءً بسواء، لا كما نراه في بعض نماذج عصرنا الحاضر من أنفة المدين من كتابة الدين، واعتبار ذلك خدشًا لكرامته ونيلاً من الثقة فيه، بل ينبغي أن يكون حرص المدين على كتابة الدين أشد؛ لأنه إذا لقي الله وعليه دين، ولم يقم أحد بالاعتراف به وقضائه عنه وقع تحت طائلة قوله ﷺ : "والذي نفسي بيده لو قتل أحدكم في سبيل الله ، ثم عاش ثم قتل ، ثم عاش ثم قتل، وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي دينه"[4] .**

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٩.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٥٨/٦ حديث رقم (٣٨٠٩).
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨٢.
(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٦٣/٢٧حديث رقم (٢٢٤٩٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ما يفيد ضبط موعد السداد بالسنين والأيام والشهور، ولا بأس أيضًا بإضافة مكان السداد ومحله، فكل ما يكفل سداد الدين وأداءه بلا لبس ولا مماطلة يعد مطلبًا شرعيًّا، ولا ينبغي أن يكون أجل السداد ملبسًا غير معلوم الزمن، كأن يقول له: سأسدد دينك إذا بعت داري أو عاد ولدي من السفر، ونحوه مما لا يضبط بعام معين وشهر معين ويوم معين.

٤ – كلمة ﴿ وَلَا يُضَآرَّ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

فهي – هنا – كما يذكر كثير من المفسرين مبنية للفاعل والمفعول معًا، ويفسر ذلك قراءة من قرأ بالفك والكسر: "ولا يضارِر"، وقراءة من قرأ بالفك والفتح: "ولا يضارَر" ؛ فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ولا يضارِر كاتب ولا شهيد الدائن أو المدين، فعلى الكاتب أن يكتب بالعدل، وعلى الشاهد أن يشهد بالحق.

وعلى القراءة الأخرى يكون المعنى ولا يضارَر كاتب ولا شهيد، أي ولا يُضَرّ كاتب ولا شهيد، ذلك أن بعضهم كان يذهب إلى الكاتب فيعجله عن أمره يقول له: اكتب الآن لأن الله تعالى يقول: "ولا يأب كاتب أن يكتب"، كما أن بعضهم قد لا يوفي الكاتب حقه، وذلك بأن يكون الكاتب محترفًا للكتابة منقطعًا لها كما هو الشأن في مهنة المحاماة الآن،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢.

فلا يوفيه المستكتب حقه وأجر كتابته، فجاء النهي عن مضارة الكاتب بإعجاله عن أساسيات حياته أو عدم توفيته على كتابته إن كان منقطعًا لها محترفًا إياها .

ولا ينبغي أيضًا أن يضار الشاهد أو الشهيد كأن تكلفه مؤنة الانتقال من محافظة إلى أخرى أو من دولة إلى أخرى ليشهد معك أو لك، وقد لا تساعده إمكاناته المادية على هذا الانتقال، فلا تحمله فوق طاقته، بل على صاحب المصلحة في الشهادة أن يتحمل مؤنة نقل الشاهد إلى مكان الشهادة، وبخاصة إذا كان الشاهد رقيق الحال لا يقوى على مؤنة النقل، بل أقول: إن الشاهد إذا كان ممن يكسب قوته وقوت أبنائه يومًا بيوم، وكان تفرغه وذهابه للشهادة في هذا اليوم سيضر بقوته وقوت أبنائه، فإن على صاحب المصلحة في الشهادة أن يعوضه عما يلحقه من ضرر بأن يدفع له ما يوازي أجر هذا اليوم الذي يتعطل فيه عن كسب قوته وقوت أبنائه.

٥ – كلمة ﴿ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾[1] .

يقول النحويون إن جمع المذكر قد يطلق على جمع المؤنث على سبيل التغليب، لكن النحويين والأصوليين يتفقون على أن ما جاء على أصله لا يسأل عن علته وما جاء على خلاف الأصل فلا بد لخروجه على هذا الأصل من علة.

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٩.

وهنا نكتة هامة في العدول عن صيغة جمع المؤنث: الخاطئات إلى صيغة جمع المذكر: " الخاطئين"، ذلك أن الأصل في المرأة أن تكون مطلوبة وأن تكون معززة، وأن تكون ممنعة، وأن تكون متأبية، والمرأة العربية الأصيلة تمتدح بالإباء والتمنع، والأصل في الرجل أن يكون خاطبًا وطالبًا ومتوددًا - وفق شرعة الله ومنهجه - ، فلما عكست امرأة العزيز الفطرة الإنسانية السليمة السوية، وتقمصت شخصية الرجال - فهي التي طلبت ، وهي التي راودت، وهي التي هيأت - فلما جاء التعبير اللغوي على خلاف الأصل ليناسب حالها المعكوس، وكأن النص القرآني يلفت أنظارنا إلى أن ما كان من امرأة العزيز هو خلاف ما تقتضيه الفطرة الإنسانية النقية، فكان التعبير بلفظ " الخاطئين" هو المعادل اللغوي الأنسب والأدق لما كان من امرأة العزيز .

٦ - كلمة ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾[1] .

فكلمة " استعصم" هي المعادل اللغوي الأدق لتصوير عفة يوسف عليه السلام، ووقوفه كالجبل الشامخ الأشم في مواجهة إغراء امرأة العزيز له، فهو لم يعتصم بحبل الله فحسب، لكنه "استعصم".

وإذا كانت زيادة المبنى زيادة في المعنى فإنه قد قابل زيادة إغرائها تارة وتهديدها أخرى بمزيد من الاستعصام بحبل الله المتين.

(١) سورة يوسف : جزء من الآية ٣٢.

يقول الزمخشري: إن الاستعصام بناء مبالغة تدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو مجتهد في الاستزادة منها[1].

بل إن يوسف عليه السلام قد قابل تهديدها بالسجن بدعائه ربه (عز وجل) أن يصرف عنه كيدهن حتى لو كان ذلك بإلقائه في السجن؛ حيث قال - كما تحدث القرآن الكريم على لسانه - : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[2].

فقد طلب يوسف عليه السلام العصمة واستمسك بها في صلابة ورباطة جأش حتى استجاب له ربه، وهو ما يصوره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].

٧ - كلمة ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾[4].

والقسمة الضيزى هي القسمة الظالمة أو الجائرة المائلة عن الحق، يقال: ضاز في الحكم أي جار، وعليه قول الشاعر:

ضازت بنو أسد بحُكْمهم     إذ يجعلون الرأْس كالذَّنب

فلماذا آثر النص القرآني التعبير بكلمة " ضيزى" دون سواها ؟

ينظر بعض الكتاب إلى الجانب الإيقاعي، فيقول: إن كلمة "ضيزى"

---

(١) الكشاف للزمخشري ، ج٢ ص٣١٨ ، ط/ مصطفى الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

(٢) سورة يوسف : جزء من الآية ٣٣.

(٣) سورة يوسف : الآية ٣٤.

(٤) سورة النجم : الآية ٢٢.

وقعت هذا الموقع مراعاة للفاصلة، وانسجامًا مع كلمات : " الكبرى"، "العزى"، "الأخرى"، الأنثى"، في الفواصل التي قبلها، و"الهدى"، "تمنى"، "الأولى"، في الفواصل التي بعدها[1].

وأرى أن مجرد الإيقاع الصوتي ومراعاة الفواصل لا يمكن أن يكون أساسًا لتفسير النص القرآني وفهم أسراره، فالفاصلة في القرآن الكريم جزء من صلب المعنى، فإنها تنبثق من روح المعنى ولا تأتي إلا إذا اقتضاها المقام وتطلبها السياق بحيث لا يصلح في مكانها غيرها.

فالسياق الذي وردت فيه كلمة "ضيزى" فيه غرابة موضوعية هي تلك القسمة الجائرة التي أنكرتها الآية السابقة لهذه الآية : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ ؟ ، ولفظ " ضيزى" بجرسه وإيقاعه ومعناه إنما هو أدق معادل لغوي لغرابة قسمتهم الجائرة التي جعلوا فيها لله البنات – سبحانه – واختصوا أنفسهم فيها بالبنين، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا[2] .

## على أني أؤكد على أمرين:

أحدهما: أن الغرابة أمر نسبي، فربما كان اللفظ غريبًا بالنسبة لنا لبعدنا عن عصر نزول القرآن الكريم، وضعف ثقافتنا اللغوية، لكنه لم يكن غريبًا على من نزل عليهم هذا القرآن.

الآخر: أن كل كلمة في القرآن الكريم قد وقعت موقعها الذي يتطلبه

---

(١) انظر: المثل السائر لابن الأثير، تقديم وتعليق: د/ أحمد الحوفي ، ود/ بدوي طبانة ، ق١ ص١٩٧، ط/ نهضة مصر، بدون تاريخ.

(٢) انظر: دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم ، د/ عاطف المليجي ، ص ٢٨، ٢٩.

المقام أو السياق، بحيث لا يمكن لغيرها أو نظيرها أو مرادفها أن يقوم مقامها فيه، وأن لا شيء في القرآن قد ورد لمجرد مراعاة الفواصل أو التحسين اللفظي، أو مراعاة للانسجام الصوتي، إنما كان لكل كلمة أو موقع أثره في المعنى المراد.

## ثانيًا: في مجال سياق النص والبنى الأسلوبية:

١ - في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾[1].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ قدم الصغير على الكبير للاهتمام به، ولتسامح الناس فيه غالبًا، وعدم انشغالهم بكتابته، فإذا جاء الأمر بكتابة الدين القليل أو الصغير والنهي عن السآمة من كتابته أولاً كانت العناية بكتابة الكثير أو الكبير أولى، وذلك حتى لا يضجر أحد أو يضيق بكتابة الدين دائنًا كان أم مدينًا، صغيرًا كان هذا الدين أم كبيرًا.

" ذلكم أقسط" أي أعدل، وأقوم للشهادة، وأدعى إلى عدم الشك والريبة في قيمة الدين، أو في نية المدين للسداد، أو في الأجل المحدد لسداد الدين، فهو أقطع لكل أوجه الخلاف، وأدعى لطمأنينة القلب لدى كلا الطرفين، وقد حملت الإشارة بـ " ذلكم " كل هذه المعاني.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢.

٢ – قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [1].

في قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ قدم هبة الولد لزكريا عليه السلام على إصلاح زوجه، على أن النظر في ترتيب الأسباب والمسببات العادية يقتضي أن يتقدم إصلاح الزوج على إنجاب الولد ، لكن النص القرآني جاء على خلاف ذلك؛ لأن قدرة الله عز وجل ومشيئته لا يحدهما أسباب ولا مسببات فإنما أمره سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2] ، فكأنه (عز وجل) يقول : نحن قادرون على أن نهب ما نشاء لمن نشاء بأسباب أو بلا أسباب، فنحن قادرون على أن نهب لزكريا أو غيره الولد سواء أصلحنا له الزوج أم لم نصلحها، فما هو عجيب مستغرب عندكم إنما هو سهل يسير في جانب قدرة الله عز وجل ، وهو ما أجابت به الملائكة زوج إبراهيم عليه السلام عندما أبدت دهشتها وتعجبها في مثل هذا الموقف، وهو ما يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ

(١) سورة الأنبياء : الآيتان ٨٩ – ٩٠.

(٢) سورة يس : الآية ٨٢.

حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [1].

إضافة إلى أن تقديم الهبة على الإصلاح تقديم للبشرى، وهي الأهم في مثل هذا الموقف؛ إذ تأتي البشرى أولاً للمتلهف لها، ثم يأتي بعد ذلك تفصيل الكلام أو ذكر الأسباب وبيان الحال.

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ بيان وتعليل لسرعة استجابة الدعاء، ولما ينبغي أن يكون عليه حال من يرجو إجابة دعائه من حسن الصلة بالله عز وجل والمسارعة في الخيرات، والدعاء سرًّا وعلنًا، رغبًا ورهبًا، في قنوت وخشوع وتضرع واستكانة لله رب العالمين، فزكريا وآله لم يكونوا يفعلون الخيرات فحسب إنما كانوا يسارعون فيها مع ملازمتهم الدعاء سرًّا وعلانية رغبًا ورهبًا، وكانوا لله الواحد الأحد خاشعين.

٣ – قوله تعالى على لسان زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [2]، وفي سورة مريم : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [3].

ذلك أن أيام العرب وشهورهم وسنيهم قمرية، فالليل في حسابهم يسبق النهار، ففي التاسع والعشرين من شعبان نترقب هلال رمضان فإذا ظهر هلال رمضان كانت أول ليلة من ليالي رمضان ثم يعقبها أول يوم منه،

---

(١) سورة هود : الآيات ٧١ – ٧٣.

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤١.

(٣) سورة مريم : الآية ١٠.

وهكذا في هلال شوال وسائر الشهور.

وسورة مريم التي جاء فيها ذكر الليالي مكية، وسورة آل عمران التي جاء فيها ذكر الأيام مدنية، وسورة مريم سابقة في نزولها لسورة آل عمران، فجعل السابق للسابق واللاحق للاحق.

٤ – في قوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[١] .

لم يستخدم النص القرآني طباق السلب، فلم يقابل " فمن تبعني" بمن لم يتبعني، واستخدم طباق الإيجاب في قوله: ﴿ وَمَنۡ عَصَانِي ﴾؛ لأنه لو قال: ومن لم يتبعني، لشمل الحكم من بلغته دعوته عليه السلام ومن لم تبلغه هذه الدعوة، أما حين قال: ومن عصاني، فقد اقتصر الأمر على من بلغته الدعوة وعصى، وهذا من رحمة الله بعباده، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولاً ﴾[٢]. غير أنه تبقى مسئولية كبيرة على الدعاة في البلاغ المبين وتوصيل رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى العالمين .

٥ – في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[٣]، وفي سورة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٦.
(٢) سورة الإسراء : الآية ١٥.
(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٦.

ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[1].

في الآية الأولى الكلام عن واقع معين حين زار إبراهيم عليه السلام المكان قبل أن يصبح بلدًا، فدعا عليه السلام لهذا المكان أن يكون بلدًا وأن يكون آمنًا، فـ "بلدًا" مفعول ثان لـ " اجعل"، وآمنًا" صفة لـ " بلدًا" .

أما دعوته عليه السلام بأن يجعل البلد آمنًا فهي بعد أن صار المكان بلدًا، فدعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل هذا البلد آمنًا، فكلمة "البلد" بالألف واللام بدل من اسم الإشارة، و" آمنًا " هي المفعول الثاني لـ "اجعل".

ففي سورة البقرة دعا إبراهيم عليه السلام للمكان بدعوتين: الأولى أن يكون بلدًا، والأخرى أن يكون آمنًا، أما في سورة إبراهيم عليه السلام فقد دعا للمكان بعد أن صار بلدًا أن يكون آمنًا تأكيدًا منه في الدعوتين على مطلب الأمن لأهل هذا البلد، وهو ما استجاب له رب العزة فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[2].

٦ – في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[3].

جاءت التراكيب "الذي خلقني"، "والذي يميتني"، "والذي أطمع أن يغفر لي" بدون ضمير الفصل "هو" ، في حين جاءت التراكيب: "فهو

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٥.

(٢) سورة القصص : الآية ٥٧.

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٨٢ – ٨٧.

يهدين"، " هو يطعمني ويسقين"، "فهو يشفين" ، مشتملة على ضمير الفصل "هو"، وذلك لأن الأفعال الأولى المتمثلة في الخلق والإماتة والإحياء ومغفرة الذنوب لا يجادل فيها أحد، بل إن أكثر الناس على التسليم المطلق فيها لله (عز وجل) ، أما جانب الرزق المعبر عنه بالإطعام والسقيا، وجانب الشفاء، وجانب الهداية إلى الصراط المستقيم، فهو مما يغفل كثير من الخلق عن الاعتماد على خالقهم فيه، وتهتز عند بعضهم فيه قضية التسليم المطلق، فنجد منهم من يخادع أو ينافق أو يغش ظنًّا منه أن ذلك قد يجلب له نفعًا في الرزق أو يدفع عنه ضررًا، ناسيًا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، كما أن بعض الناس قد يذهب في مسألة التداوي إلى بعض الدجالين والعرافين والمشعوذين أو بعض الأضرحة يلتمس عندها الشفاء، فلما كان الحال عند بعض الناس في هذه الأمور ينقصه اليقين المطلق في الله (عز وجل) جاءت هذه الأفعال مؤكدة بضمير الفصل؛ ليؤكد النص القرآني أن رب الخلق والإحياء والإماتة، هو رب الهداية، ورب الإطعام، ورب السقيا، ورب الشفاء، فكما أنه لن تموت نفس؛ حتى تستوفي أجلها ورزقها، فليس من الإيمان واليقين أن تفوض الأمر إليه هنا ولا تفوضه إليه هناك، فهو وحده القادر على كل ذلك والأمر كله له ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [1] .

٧ - في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ هَلۡ

(١) سورة يس : الآية ٨٢.

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [1].

ففي قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ استخدم النص القرآني لفظ يسمعون مع أن الدعاء يناسبه الإجابة – نقول منا الدعاء ومنك الإجابة، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2]، ويقول جل في علاه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [3].

وذلك لأن هذه الأصنام العائد إليها الضمير في قوله تعالى: " هل يسمعونكم" لا تسمع أصلاً، وإذا انتفى السماع من أساسه فلا أمل ولا تفكير في الإجابة على الإطلاق، فإذا قيل لك هل أجابك فلان؟ فقلت إنه لا يسمعني أصلاً أو لا يريد أن يسمعني، كان ذلك قطعًا منك للأمل في إجابته إياك، وهذا هو حال الأصنام التي لا تسمع، فكيف تجيب؟ !

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ذكر مفعول ينفع وحذف مفعول يضر؛ لأن هذه الأصنام إذا كانت لا تنفع من يعبدها ويتقرب إليها، فهل يتصور أن تنفع من لا يعبدها ولا يتقرب إليها ؟!

أما حذف مفعول يضر فلتأكيد أن هذه الأصنام لا تضركم أنتم ولا تضر

---

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٧٢ – ٧٣.

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠.

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٦.

غيركم، حتى من يعاديها ويحاربها، فلو كانت تستطيع فعليها أن تضر من يكيد لها ويقوم بتحطيمها وجعلها جذاذًا.

كما أنها لا تستطيع – أيضًا – أن تضركم إذا تركتم عبادتها إلى عبادة الواحد الأحد، وما دامت هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر فهل يستحق من هذه صفته من العجز أن يُعبد؟! وهل لعاقل أن يعبد من هذا حاله؟!

٨ – في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [1].

أ – عبر النص القرآني في جانب الرحمة والنعماء بلفظ الإذاقة للتأكيد على أن النعمة قد وصلت إلى الإنسان، وذاق حلاوتها، واستمتع بها، طال الزمن في ذلك أم قصر، أما في جانب الضراء فقد عبر الحق سبحانه بكلمة "مسته" للإشعار بأن الضراء كانت في أدنى درجاتها، فقد مسته مجرد مس، وهو أدنى درجات الالتقاء أو الملاقاة، وفي ذلك من اللطف الإلهي ما لا يخفي، وتأكيد على أن الإنسان خلق ضعيفًا، وأنه : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [2].

ب – في إسناد الإذاقة إلى الله جل جلاله تأكيد على أنها فضل

---

(١) سورة هود: الآيات ٩ – ١١.

(٢) سورة المعارج: الآيات ٢٠– ٢٣.

ونعمة مساقة من الله إلى عباده وخلقه ، أما المس فقد أسند إلى الإنسان ، لأن العقاب بإزالة النعم والحرمان منها إنما يكون لتقصير الإنسان في شكرها، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [1]، ويقول (عز وجل) : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [2]، وقد يكون ذلك ابتلاءً واختبارًا ، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط ، وهذا ما يشير إليه حديث نبينا ﷺ: " عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له [3].

ج- في التعبير بقوله تعالى : " نزعناها" دون غيره، كنحو: سلبناها أو أزلناها أو أخذناها، ما يدل على شدة تعلق الإنسان بالنعمة وحرصه عليها كما هو الحال في شأن الملك ، وهو ما بينه قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [4]. فالإتيان فيه سهولة ويسر ، وفي النزع دلالة على شدة تعلق المنزوع منه بالمنزوع.

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧.

(٢) سورة النساء : الآية ٧٩.

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير، ط/ عيسى الحلبي، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

(٤) سورة آل عمران : الآية ٢٦.

د - استخدم النص القرآني صيغ المبالغة : " يئوس" ، " كفور " ، " فرح" ، " فخور " ، للدلالة على شدة اليأس وكفران النعمة عند هذا النوع من البشر في الحالة الأولى التي هي زوال النعمة عنه ، وشدة الفرح وهو هنا بمعنى البطر والأشر والاستعلاء على الناس في الحالة الثانية التي هي سوق النعمة إليه ، إلا من استثناه الله جل جلاله وهم الذين صبروا في الضراء وشكروا في النعماء .

٩ - قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [1]. حيث جاءت كلمة " فتحت " غير مسبوقة ولا مقرونة بالواو ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [2]؛ حيث جاءت كلمة " وفتحت "مسبوقة بالواو .

وهذه الواو التي جاءت في قوله تعالى : " وفتحت " في الحديث عن أهل الجنة قال بعض العلماء والمفسرين: إنها واو الحال ، والمعنى جاءوها والحال أنها مفتوحة، وذلك من زيادة إكرام الله جل جلاله لعباده المؤمنين أن جعل الجنة مفتحة الأبواب مهيأة لاستقبالهم قبل قدومهم إليها، والحال ليس كذلك مع أهل النار بل إن النار تأخذهم بغتة .

وقال بعض المفسرين واللغويين: إن هذه الواو واو الثمانية ذلك أن بعض القبائل العربية كانت تعد ، فتقول : واحد، اثنان ، ثلاثة ، أربعة،

(١) سورة الزمر : الآية ٧٢.

(٢) سورة الزمر : الآية ٧٣.

خمسة ، ستة ، سبعة، وثمانية، فتأتي بالواو مع العدد الثامن، وذكروا لذلك شواهد، منها قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(2)، وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(3)، مع أن الواو في هذه الآية لها معنى آخر وهو إفادة التنويع ، ولا مانع أن يتضمن الحرف أكثر من معنى .

وقد ذكرت واو الثمانية في قوله تعالى : " وفتحت " في الحديث عن أهل الجنة دون قوله تعالى : " فتحت " في الحديث عن أهل النار، ذلك لأن أبواب النار سبعة لقوله تعالى في الحديث عنها : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾(4) ، أما أبواب الجنة فثمانية لقول نبينا ﷺ : " من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين؛ فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء "(5).

---

(1) سورة الكهف : الآية ٢٢.

(2) سورة التوبة : الآية ١١٢.

(3) سورة التحريم : الآية ٥.

(4) سورة الحجر : الآية ٤٤.

(5) سنن الترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما يقال بعد الوضوء.

فلما كانت أبواب الجنة ثمانية عُبِّرَ معها بالواو ، ولما كانت أبواب جهنم سبعة لم يؤت معها بالواو، وفي كون أبواب الجنة ثمانية وأبواب جهنم سبعة ما يدل على أن رحمة الله (عز وجل) أوسع من غضبه.

١٠ – قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1].

فقد قدم ضمير المخاطبين في قوله تعالى : " نرزقكم" على ضمير الغائبين في قوله تعالى " نرزقهم" ، وفي سورة الإسراء جاء الترتيب عكس ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۢ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[2].

وكل قد وقع موقعه، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ ﴾ ، فمن هنا لبيان الحال ، أي لا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر الواقع بكم خشية أن يزيدكم هؤلاء الأولاد فقرًا على فقركم، ولما كان الفقير مشغولاً دائمًا بحاله وواقعه ورزق يومه طمأنه الحق (عز وجل) على ذلك بقوله تعالى: " نحن نرزقكم"، فبدأ بما يناسب حال المخاطبين، ثم ثنى بقوله تعالى : و " إياهم" ليطمئنهم أيضًا على أبنائهم من بعدهم.

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥١.

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣١.

أما في آية سورة الإسراء فيقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾، وأمر منطقي أن الذي يخشى الإملاق والفقر هو الغني لا الفقير ، يقول الشاعر:

ألم تر أن الفقر يُرْجَى له الغِنَى     وأن الغنى يُخشَى عليه من الفقر

والغني – غالبًا – مشغول بحال أبنائه وتربيتهم وتدبير أمورهم أكثر من انشغاله بحال نفسه ، فكان الأنسب لحاله أن يُطمئن الحق سبحانه المخاطبين هنا على ما يشغلهم وهو رزق أبنائهم، فبدأ بقوله سبحانه "نحن نرزقهم" ثم ثنى بالحديث عن رزقهم هم في قوله: "وإياكم"، وكأنه سبحانه وتعالى يقول لهم : كما رزقناكم فنحن بقدرتنا ومشيئتنا نرزق أبناءكم أيضًا.

وبهاتين الآيتين معًا يقطع النص القرآني الحجة على الفقير والغني معًا، ويزيل العلة التي من أجلها قد يقدم هذا أو ذاك على كبيرة قتل الأولاد من الفقر أو خشية الفقر ، فلا عذر بعد ذلك لفقير ولا لغني؛ لأن الله (عز وجل) هو المتكفل برزق هذا وذاك، بل إنه تكفل برزق كل دابة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

١١ – قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود : الآية ٦.

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠٠.

ففي تقديم كلمة " شركاء " على كلمة " الجن " في هذه الآية فائدة جليلة ومعنى مقصود لذاته لا سبيل إليه مع التأخير ، يقول الإمام عبد القاهر : وبيان ذلك أننا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن، وإذا أخر فقيل جعلوا الجن شركاء لله لم يفد ذلك ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، أما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه [1].

ففي تقديم " الجن" على " شركاء " يتوجه الإنكار إلى كون الجن شركاء لله، فيكون خاصًّا بذلك، أما في تقديم شركاء على الجن فيكون الإنكار متوجهًا إلى مطلق اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم ، ويدخل اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم في هذا الإنكار، ثم يأتي ذكر الجن بعد كلمة " شركاء" ليتوجه إليه الإنكار مرة أخرى على سبيل الخصوص، فيكون النص القرآني قد أنكر عليهم اتخاذهم لله (عز وجل) شركاء من دونه سواء من الجن أم من غيرهم، ثم زادهم إنكارًا أو توبيخًا على خصوصية اتخاذهم الجن شركاء لله ، تعالى الله عن إفكهم وشركهم علوًّا كبيرًا.

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ص ٢٧٦، تحقيق: د/ محمد رضوان الداية، د/ فايز الداية ، نشر مكتبة سعد الدين ، دمشق ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

# الفصل الثاني

# دلالة السياق
# وأثرها في النص الأدبي
# "دراسة نقدية"

## تمهيد

قضية السياق واحدة من أهم القضايا المحورية في النقد الأدبي الحديث، فبين اتجاه تقليدي يكاد يعني بالمؤثرات الخارجية أكثر من عنايته بدراسة النص نفسه، وتيار لغوي أو ألسني يكاد يلغي هذه المؤثرات ، ويسلخ النص من محيطه وكل أبعاده السياسية والتاريخية والاجتماعية والنفسية ، بين هؤلاء وأولئك وقف بعض النقاد موقفًا وسطًا فرأوا في دراسة السياق ببعديه : سياق النص وسياق الموقف ما يمكن أن يشكل منطقة وسطًا تسبر أغوار النص ، وتبرز قيمه الفنية والجمالية من غير أن تعزله عن محيطه أو عن تلك المعطيات التي لا غنى عنها في تفسيره أو تحليله .

وقضية السياق أحد أهم المحاور التي تؤسس للنظرية النقدية العربية المنشودة ، غير أن هذه القضية وإن نالت اهتمام بعض الباحثين في علم اللغة فإنها لم تحظ بدراسات نقدية وافية كتلك التي حظيت بها دراسات السياق من أبعاده اللغوية ، فما زال موضوع دلالة السياق في حاجة إلى دراسة بل دراسات تنظيرية وتطبيقية توفيه حقه ، تقف على جذوره التراثية من جهة ورؤية المعاصرين له من جهة أخرى .

ويأتي تناولي لهذا الموضوع في ثلاثة مباحث.

**المبحث الأول :** تحدثت فيه عن مفهوم السياق لغة واصطلاحًا ، والفرق بين سياق النص وسياق الموقف .

**وأما المبحث الثاني** : فتناولت فيه نظرة النقاد القدماء إلى السياق .

**وأما المبحث الثالث** : فتحدثت فيه عن رؤية النقاد المعاصرين للسياق ، والفرق بين الدراسات السياقية والدراسات الأسلوبية أو الدراسات النصية .



# المبحث الأول

# مفهوم السيـــــاق

## أ – فــي اللغــة :

يقال : ساق الرجل الإبل سوقًا وسياقًا فهو سائق وسواق ، وساق الحديث : سرده وسلسله ، وساق الله إليه خيرًا ونحوه : بعثه وأرسله.

وساوقه : تابعه وسايره وجاراه ، وتساوق الشيئان : تسايرا أو تقارنا ، وانساقت الإبل وتساوقت : تتابعت ، والمساوقة : المتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا .

وبنى القوم بيوتهم على ساق واحدة أي على صف واحد ، وولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة ، أو ساقًا على ساق : أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم أنثى(١) .

وسياق الكلام : تتابعه ، وأسلوبه الذي يجري عليه(٢) .

وهذه المعاني – في جملتها – تدور حول السرد ، والتتابع ، والانتظام ، والالتئام .

---

(١) لسان العرب ، والمعجم الوسيط : مادة (سوق).

(٢) المعجم الوسيط ، مادة (سوق).

## ب – السياق اصطلاحًا :

يعرف السياق: بأنه البيئة اللغوية المحيطة بالعنصر اللغوي المراد تحليله، أو هو ما يسبق ويلحق ذلك العنصر[1] .

وبأنه: النظام البنائي لإنجاز النص وفهمه[2] .

وهذان التعريفان يغلب عليهما طابع علم اللغة والدراسات الألسنية التي تعنى بتحليل العناصر اللغوية أكثر من أي جانب آخر في النص .

ويمكن أن نعرف السياق بأنه: طريقة النظم التي يقتضيها بناء النص الأدبي مع مراعاة الحال والمقام .

وعليه نستطيع أن نفرق بين نوعين من السياق :

### ١ – سياق النص :

وهو ما يقتضيه نظم الكلام من اختيار الكلمة أو الجملة، وتحديد بنيتها وتركيبها ، ووضعها موضعًا خاصًّا ، تقديمًا أو تأخيرًا ، ذكرًا أو حذفًا ، تعريفًا أو تنكيرًا ، فصلاً أو وصلاً ، إلى غير ذلك من مواقع الكلم ومواضعه ، وهو محور هذا البحث .

### ٢ – سياق الموقف :

ويقصد به الملابسات المصاحبة للنص ، أو الأحوال والمواقف التي ورد فيها النص أو قيل بشأنها .

---

(١) انظر: دلالة السياق، د/ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ص٨ ، ط/ جامعة أم القرى، سنة ١٤٢٤هـ.

(٢) المرجع السابق ص٩.

وينبغي أن ينظر إلى هذا السياق بعين الاعتبار عند الدراسة الأدبية للأسلوب ؛ فالنص في نهاية الأمر ليس سوى تعبير يشكل جزءًا من عملية اجتماعية معقدة، مما يجعل من الضروري استحضار الملابسات الشخصية والتاريخية والاجتماعية واللغوية والأدبية التي كتب فيها النص ، ما دمنا نريد أن نجري عليه اختبارًا جادًّا في نطاق تحليل أدبي مكتمل(1) .

ومع تأكيدنا على أهمية الدراسات النصية والأسلوبية ، وعلى أن يظل الجانب الفني الإبداعي أهم محاور النقد الأدبي ، وألا تتحول الدراسات الأدبية والنقدية إلى دراسات تاريخية أو اجتماعية أو نفسية أو فلسفية تعني بالمعطيات التي تفد من خارج النص – والتي ينبغي أن تكون مجرد إضاءات أكثر من عنايتها ببنية النص ولحمته ، والوقوف على أسراره البلاغية والجمالية – فإنني أؤكد أيضًا على أنه لا يمكن تجاهل هذه المعطيات، وأننا بحاجة للإلمام بسياق الموقف لإضاءة بعض جوانب سياق النص وسبر أغواره ، فثمة مواقف أو مقاربات نقدية لا يمكن فك شفرتها إلا في ضوء سياق الموقف .

ومن ذلك ما عابه النقاد على أبي النجم وقد استنشده هشام بن عبد الملك فأنشده أرجوزته التي يقول فيها :

والشمس قد كادت ولما تفعل        كأنها في الأفق عين الأحول

---

(1) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل، ص٢٥٠، ط/ دار الشروق، سنة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م، وانظر: دلالة السياق لردة الله بن ردة الطلحي، ص٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢.

وكان هشام أحول ، فغضب وأمر بحجبه[1] ، حيث لم يفطن الشاعر هنا لحال ممدوحه ، ولم يراع ما يقتضيه المقام من اليقظة والفطنة ، وعدم الوقوع في ما يغضبه أو يقع من نفسه موقعًا غير مستحسن .

وعابوا على ذي الرُّمة قوله في مطلع قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان :

ما بالُ عَينكَ منها الدمعُ يَنْسَكِبُ ∴ كَأَنَّـهُ مـن كُلى مَفْرِيَّـةٍ سَربُ

وكانت عين عبد الملك تطرف وتدمع ، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به ، فاستقبح استهلاله، وقال له: وما سؤلك عن هذا يا جاهل؟ وأمر بإخراجه.[2]

ودخل أرطأة بن سُهَيَّة على عبد الملك بن مروان فأنشده قوله :

وما تبغي المنيةُ حين تأتي ... على نفس ابن آدمَ من مزيدِ

وأعـلمُ أنها سَتِكـرُّ حتى ... تُوفي نَذْرَهَا بأبي الوليـدِ

فقال عبد الملك : ما تقول ؟ ثكلتك أمك ! فقال : أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين[3] ، ولم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات[4].

---

(١) العمدة لابن رشيق، ج ١ ص٢٢٢ ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط / دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، ص٢٧٤ ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط/ دار الفكر العربي بالقاهرة، سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٢) العمدة لابن رشيق، ج ١ ص٢٢٢، والموشح للمرزباني، ص٣٠٢ ، ٣٠٣.

(٣) كان كل من الشاعر وعبد الملك يكنى بأبي الوليد ، ومن هنا وقع اللبس.

(٤) الموشح للمرزباني، ص٣٠١ ، ٣٠٢ ، وانظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص٣٥٤، تقديم:

واستنشد زياد بن أبيه حمادًا الراوية فأنشده قول الأعشى :

رَحَلَت سُمَيَّةُ غُدوَةً أَجمالَها  غَضبى عَلَيكَ فَما تَقولُ بَدا لَها

فقطب زياد ، وعرفت الكراهة في وجهه ، وانفض المجلس على شر[1] .

وقد دعا المرزباني إلى ضرورة تنبه الشاعر إلى هذه المواطن ومراعاة الحال والمقام، فقال : " وليتجنب التشبيب بامرأة يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح من أمه أو قرابته ، أو غيرها ، وكذلك ما يتصل به سببه أو يتعلق به وهمه[2] .

وأظن أنه لا أحد يستطيع أن ينكر قيمة هذه الإضاءات في مقاربة النص الأدبـي.



---

الشيخ حسن تميم، مراجعة: محمد عبد المنعم العريان، ط/ دار إحياء العلوم، بيروت، سنة ١٩٨٧م.

(١) انظر : الموشح للمرزباني ص٣٠٢ ، وروايته " حلت سمية " ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج٦ ص٨٨، تحقيق: عبد الستار فراج، ط/ دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٥٥م.

(٢) الموشح للمرزباني ص٣٠١.

# المبحث الثاني
# نظرة النقاد القدماء إلى السياق

مصطلح السياق شأن كثير من المصطلحات الأدبية والنقدية التي كان أدباؤنا ونقادنا على وعي بها ، وإن لم يضعوا لها تعريفًا جامعًا مانعًا ، أو يعرفوها بحد أو رسم ، فقد بدأ تحديد وتقنين بعض المصطلحات اللغوية والبلاغية والنقدية مع ظهور التأليف المنهجي في العصر العباسي ، وتأصل ذلك ورسخ عند المتأخرين ، وازداد دقة وتحديدًا في الدراسات الحديثة والعصرية .

وقد عني أسلافنا القدماء من اللغويين والأدباء بطريقة نظم الكلام وتركيبه ابتداء من سيبويه (ت ١٨٨هـ) الذي أكد أن مدار الكلام على تأليف العبارة وما يترتب على هذا التأليف من صحة واستقامة أو فساد واستحالة ، فقسم الكلام إلى مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، ومحال كذب " أما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسآتيك غدًا ، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غدًا ، وسآتيك أمس ، وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر، ونحوه ، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيدًا رأيت ، وكي زيدًا يأتيك ، وأشباه هذا ، وأما

**المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس"[1] .**

**وهذه إشارة واضحة إلى أن الشأن إنما هو في تأليف الكلام ونظمه وطريقة تركيبه وضم بعضه إلى بعض، فقولك : أتيتك أمس وسآتيك غدًا كلام مستقيم حسن ، فلو وضعت كلمة : "غدًا" موضع "أمس" أو العكس ، فقلت : أتيتك غدًا ، أو سآتيك أمس لصار كلامًا فاسدًا محالاً .**

**ثم جاءت الإشارة إلى السياق أكثر وضوحا عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي أكد في أكثر من موضع على ضرورة مراعاة الحال والمقام ، فلكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل ، بل لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلصق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة[2] .**

**وينبغي أن تكون الكلمة قارة في مكانها غير نابية في موضعها أو منافرة لجاراتها ، فإذا وجدت " اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير أوطانها "[3] .**

---

(١) الكتاب لسيبويه ج ١ ص٢٥ ، ٢٦، تحقيق: عبد السلام هارون، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٩م.

(٢) انظر : الحيوان للجاحظ ج ٣ ص٣٦٨ ، ٣٦٩، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط/ دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٣٨٨هـ.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص١٣٨، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

فقوله : " لكل صناعة ألفاظ حصلت لأهلها بعد امتحان سواها " إشارة واضحة إلى عملية الاختيار والانتقاء التي عرفت في علم اللغة الحديث بعملية الاستبدال ، كما أن في هذه العبارة وعيًا واضحًا بتصنيف الألفاظ ، وهو ما يعرف في علم اللغة الحديث بالسجل السياقي أو الحقول الدلالية .

والجاحظ لا يكتفي بمجرد الدعوة إلى حسن التأليف ووضع الكلمة في موضعها ، وتمكن القافية من مكانها والتئامها التام مع بنية النص ، واستدعائه لها ، بل يعتبر ذلك عمدة الكلام ومناط الإبداع ، فإذا لم يسمح طبع المنشئ بذلك لأول وهلة فعليه أن يعاود النظر عند نشاطه وفراغ باله دون عجل أو ضجر ، فإن امتنع عليه الأمر ولم يجبه طبعه بعد ذلك فليتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليه ، وأخفها عليه [1] ، فالذي لا يقوى على ذلك ولا يعرف أصوله وطرائقه لا ينبغي أن ينسب إلى أهل هذا الفن .

أما " إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك "[2] .

ثم جاء القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٦٦هـ) فكان أكثر

(١) البيان والتبيين ج ١ ص١٣٨.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص١١٦.

وضوحًا في وعيه بالسياق ، وقد أكدنا فيما سبق[1] أنه يرى أن أقل الناس حظًّا أو شأنًا في صناعة الأدب أو الكلام من اقتصر في اختياره ونفيه إن كان منشئًا ، أو استحسانه واستقباحه إن كان ناقدًا على مراعاة الجوانب الشكلية أو اللفظية من إقامة الوزن ، وفصاحة الكلام ، وصحة الإعراب ، مع تنميق الكلام وزخرفته ، دون أن يراعى ائتلاف النظم ، وما بين اللفظ وجاره من لحمة أو نسب ، ومدى تطلب الكلام لهذا اللفظ أو ذلك ، أو ما يتطلبه السياق من اختيار لفظ دون آخر ، ووضعه موضعًا ما تقديمًا أو تأخيرًا، أو تعريفًا أو تنكيرًا ، أو ذكرًا أو حذفًا ، وفق ما يقتضيه الحال والمقام ، وهو ما يعد من أهم المحاور التي تقوم عليها الدراسات الأسلوبية أو السياقية الحديثة .

وقد أفاد الجرجاني من وعيه بالسياق إفادة واضحة في تطبيقاته في كتاب الوساطة في مواضع كثيرة منها :

- قوله في الحديث عن سرقات أبي الطيب :

قال أبو تمام :

أَغَارَ مَنِ القَمِيصِ إِذِاَ عَلاَه        مَخَافَـةَ أَن يُلَامَسهُ القَمِيـصُ

أخذه أبو الطيب فقال :

أَغارُ مِنَ الزُجاجَةِ وَهيَ تَجري        عَلى شَفَةِ الأَميرِ أَبي الحُسَينِ

(١) انظر: ص ١٧ وما بعدها ، وكذلك: الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص٤١٣.

فأساء ، لأن هذه الغيرة إنما تكون بين المحب ومحبوبه ، أما الأمراء والملوك فلا يغار على شفاههما[1] .

- تعليقه على قول أبي تمام :

يَدي لِمَن شاءَ رَهنٌ لَم يَذُق جُرَعًا        مِن راحَتَيكَ دَرى ما الصابُ وَالعَسَلُ

فحذف عمدة الكلام ، وأخل بالنظم ، وإنما أراد يدي لمن شاء رهن " إن كان " لم يذق ، فحذف " إن كان " من الكلام ، فأفسد الترتيب ، وأحال الكلام عن وجهه[2] .

- تعقيبه على قول أبي الطيب :

يَرى فى النَوم رُمحَكَ فى كُلاهُ   ∴   وَيَخشى أَن يَـراهُ فـى السهـادِ

يقول : فقصر أبو الطيب في ذكر السهاد ، لأنه أراد أن يقابل به النوم ، وبذلك يتم المعنى ، وليس كل يقظة سهادًا ، إنما السهاد امتناع الكرى في الليل ، ولا يسمى المتصرف في حاجاته بالنهار ساهدًا وإن كان مستيقظًا[3] . وأمثال ذلك في الوساطة كثير[4] .

ثم جاء بعد ذلك كل من الخطابي ، وعبد القاهر واسطة العقد في هذا الموضوع ، وابن الأثير ، وهو ما يستدعي الوقوف عند رؤية كل من هؤلاء الأعلام للسياق .

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ص٧٩.

(٣) المصدر السابق ص٢٥٣.

(٤) راجع: المصدر السابق ص٦٩ ، ٨٠ ، ٢٢٠ ، ٢٥١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤١٨ ، ٤١٩.

## أ – الخطابي والسياق :

يرى الخطابي أن عمود البلاغة ، بل أعلى طبقاتها ، وأرفع درجاتها ، هو ما وضع فيه كل لفظ في موضعه الأخص الأشكل به ، فإذا أبدل مكانه غيره ترتب عليه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة "[1] .

والأمر عند الخطابي لا يقف عند اختيار الألفاظ ووضعها في مواضعها ، بل يتجاوز ذلك إلى ضرورة صحة المعنى ، والتئام النظم ، بل شدة هذا الالتئام مع حسن التأليف ، فالكلام عنده يقوم بثلاثة أشياء : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، " والقرآن إنما صار معجزًا ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمنًا أصح المعاني ... واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه "[2] .

وعلى هذا النص يعقب د/ عبد العزيز حمودة بقوله : إننا لا نملك إلا أن نقف أمام هذا النص النقدي في عجب وإعجاب شديدين ، فإنه يحدد معالم نظرية اتصال لغوية حديثة ، ويتحدث عن اللغة كنظام للعلامات ، وإن كان لا يستخدم لفظ علامة صراحة.

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر) ص٢٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٧ ، ٢٨.

ويصل العجب إلى ذروته أمام المقطع الأخير من سطور الخطابي الذي يوجز نظريته اللغوية فيما يشبه الإعجاز والدقة العلمية المطلقة: "وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم" .

إننا هنا أمام شروط تحقيق الدلالة أو المعنى ، وهي وجود نسق من العلامات ، كل علامة تتكون من عنصرين الدال والمدلول ، وهو ما يحمله قوله : " لفظ حامل ، ومعنى به قائم " لكن هذه العلامات اللغوية تبقى عاجزة عن تحقيق المعنى إلى أن ينظمها نظام علاقات يمكنها مجتمعة من تحقيق الدلالة ، وهو ما نفهمه من قوله : " ورباط لهما ناظم " .

لقد استغرق العقل الغربي الذي أبهرتنا إنجازاته الحداثية ما يقرب من اثني عشر قرنًا لينتج هذه الصيغة التي أدرنا لها ظهورنا بدلاً من تطويرها.[1]

وفي مجال التطبيق حاول الخطابي – في استفاضة – أن يبرز ما أكده في تنظيره من أن اللفظة الواحدة قد تصلح في موضع ولا تصلح في غيره، ولا يصلح غيرها في مقامها ، فإذا أبدلت بغيرها أو انتقلت عن موضعها فسد المعنى أو اختل النظم وذهب الرونق ، فلكل لفظة خاصية تتميز بها عن سواها، حتى المترادفات التي تشترك معها في أصل الدلالة أو في بعض معانيها ، ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد

---

(١) المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٣٣ ، ٢٣٤.

والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبلى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحو ذلك من الأسماء والأفعال والحروف والصفات ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك[1] .

**ومن الأمثلة التي استشهد بها لذلك قوله :**

أ – أنك تقول : عرفت الشيء وعلمته ، إذا أردت الإثبات الذي يرتفع معه الجهل ، إلا أن قولك : "عرفت" يقتضي مفعولاً واحدًا ، كقولك : عرفت زيدًا ، وعلمت يقتضي مفعولين ، كقولك : علمت زيدًا عاقلاً ، ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصًا في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته، فتقول : عرفت الله ، ولا تقول : علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات ، فتقول : علمت الله عدلاً ، أو علمته قادرًا[2] .

ب – أن أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؛ فَقَالَ ﷺ : « أَعْتِقِ النَّسَمَةَ ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوَلَيْسَا وَاحِدًا ؟ قَالَ ﷺ : « لاَ؛ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَنفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا »[3] .

ج – في قوله تعالى : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [4] ، عبر بالهلاك دون غيره من

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٢٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٣، والحديث رواه البيهقي في السنن الصغرى – كتاب العتق ، باب العتق ٤/٢٠٠ حديث (٣٤١٠).

(٤) سورة الحاقة : الآية ٢٩.

الألفاظ كالذهاب ونحوه ، لأن الذهاب قد يكون على مراصدة العودة ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى[1] .

د – في قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾[2] عبر بالأكل دون الافتراس ونحوه من أفعال السباع؛ لأن الافتراس في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفَرْس (بفتح الفاء وسكون الراء) : دق العنق ، والقوم إنما ادَّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادَّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم هذه المطالبة ، والفَرْس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل[3] .

## ب- الإمام عبد القاهر[4] والسياق :

لا شك أن واسطة العقد ، وفارس الحلبة في هذا المضمار هو الإمام عبد القاهر صاحب نظرية النظم ، فقد استطاع الرجل أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٤٤.

(٢) سورة يوسف : جزء من الآية ١٧.

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٤١.

(٤) هو الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، نسبة إلى جرجان التي ولد بها سنة ٤٠٠هـ ، كان من كبار أئمة العربية وفقهائها ، وله مؤلفات كثيرة ، من أهمها : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وفي علم النحو : المغني ، والمقتصد ، والعوامل المائة ، والجمل " شرح العوامل المائة " ، وكانت وفاته سنة ٤٧١ هـ.

العلاقات بين العلامات اللغوية أفقيًّا ورأسيًّا[1]، مما جعل كتاباته – وبخاصة في دلائل الإعجاز – من أهم المصادر التي لا يمكن لباحث في الدراسات الأسلوبية أو السياقية تجاوزها ، وجعلته موضع ثناء وتقدير من كبار النقاد والباحثين في العصر الحديث ، يقول د/ محمد مندور : " منهج عبد القاهر يستند إلى نظرية في اللغة ، أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء ، ونقطة البدء نجدها في آخر "دلائل الإعجاز" ، حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل مجموعة من العلاقات "[2] .

ويرى بعض الكتاب أن نظرية السياق الحديثة لا تضيف إلى ما قاله عبد القاهر إلا التفصيلات والربط بمفهوم التطور الدلالي كما ألفته المعجمات الحديثة[3] .

بل إن الإعجاب الشديد بفكر عبد القاهر ودراسته للنظم أو السياق قد دفع كاتبًا وناقدًا كبيرًا هو الدكتور/ عبد العزيز حمودة إلى المبالغة والقول بأن النظم الذي ارتبط باسم عبد القاهر يجمع كل مفردات النسق الحداثي[4] .

---

(١) انظر: المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٣٣.

(٢) في الميزان الجديد، د/ محمد مندور ص١٧٦ ، ١٧٧، ط/ نهضة مصر، سنة ١٩٧٧م.

(٣) مقدمة دلائل الإعجاز لمحمد رضوان الداية وفايز الداية ص١٨.

(٤) المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٢٦ ، ومع تأكيدنا على القيمة العالية لدراسة عبد القاهر للنظم فإن القول بأن هذا النظم الذي ارتبط باسم عبد القاهر يجمع كل مفردات النسق الحداثي يحتاج إلى شيء من المراجعة أو التقييد.

ومن خلال دراستنا لقضية النظم أو السياق عند عبد القاهر ، وما كتب حولها من شروح أو تعليقات ، نسجل الآتي :

١ - أن نظرية النظم لم تحظ في تاريخ البلاغة العربية أو النقد الأدبي بالاهتمام الذي أولاه إياها عبد القاهر ، فقد عكف الرجل على شرح نظريته وتطويرها وتطرق إلى كل ما يتعلق بها من أمور ، وفي مقدمتها العلاقة أو العلاقات التي تحكم الوحدات المكونة للبنية اللغوية ، وسبق كثيرًا من الكتاب الغربيين والعرب الذين تفننوا في ذكر المصطلحات الحديثة ، نحو : "السياق التتابعي" ، " الفحص الاستبدالي" ، " المحور الرأسي والمحور الأفقي " ، "التطالب النحوي والتطالب المعجمي " ، وإن كان عبد القاهر لم يستخدم هذه المصطلحات، " فالمصطلح المتكرر في وصف العلاقة الأفقية – وهي محور النظم الحقيقي – هو الجوار أحيانًا، والضم أحيانًا أخرى ، أما المحور الرأسي فالمصطلح الشائع بين البلاغيين العرب هو الاختيار ، وهو يؤدي المعنى الحديث بالكامل"[(١)] .

فعندما يتحدث عبد القاهر عن المقارنة بين مواقع الكلم ، حيث تستحسن اللفظة داخل سياق وتثقل أو تستهجن داخل سياق آخر فإنه يجمع بين المحورين الأفقي والرأسي في جملة واضحة ، فالاستحسان والاستهجان – بقدر ارتباطهما بالسياق التتابعي وفق أحكام النحو – يرتبطان أيضًا بممارسة الاختيار السليم في الحالة الأولى ، والخاطئ في

(١) المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٥.

الثانية ، والاختيار هو أساس علاقة الاستبدال[1] ، وهو من أهم الأسس التي اعتمدها عبد القاهر في نظرية النظم ، وهو ما يعنيه بقوله : " وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم ؟

وهل تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟

وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة؛ إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ؟ "[2] .

وقوله : " فقد اتضح إذًا اتضاحًا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك .

ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر "[3] .

٢ – أن عبد القاهر نظر إلى النص على أنه كيان له بنيانه ، ولابد من دراسة الروابط وعلاقات التأثير بين مكوناته وأبنيته الداخلية ، وهو جزء

---

(١) انظر : المرايا المقعرة، ص٢٥٥ ، ٢٥٦.

(٢) دلائل الإعجاز ص٩٠ ، ٩١ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ص٩٢.

هام من مفهوم نظرية السياق الحديثة في دراسات اللغويين والنقاد الأسلوبيين ، فقد تنبه عبد القاهر إلى أمر هام " هو اكتساب الكلمة دلالاتها المتميزة من تفاعل التصور فيها مع التصورات الأخرى من الأسماء والصفات والأفعال في جو معين : الموضوع ، والمجال ، والآفاق : مادية أو ذهنية أو نفسية ، وفي علاقات زمانية ومكانية وشخصية ، وبهذا يكتمل السياق بأبعاده اللغوية – النحوية ، والآفاق التصورية ، وتبرز – هنا – اصطلاحات الهوامش الدلالية أو ظلال المعنى ، فالكلمة تتأثر بدلالات الكلمات في الجملة أو العبارة من حولها ، وكذلك تفيد من محيط النص وإيحاءاته "[1].

فالنظم – عند عبد القاهر – لا يعني ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، بل لابد أن يراعى فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، و " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "[2] .

ونستطيع القول بأن عبد القاهر في تطبيقاته كان على وعي كبير بسياق النص وسياق الموقف معًا ، وأنه استطاع بمهارة فائقة أن يوظف وعيه بسياق الموقف لدراسة وتحليل سياق النص .

٣ – لعل أهم ما في نظرية النظم أو دراسة عبد القاهر للسياق هو أن

(١) مقدمة دلائل الإعجاز لمحمد رضوان الداية وفايز الداية ص١٨.

(٢) دلائل الإعجاز ص٩٤.

الرجل لم يقف عند حدود التأصيل أو التنظير لقضيته ، فقد شرح نظريته من خلال نماذج تطبيقية عديدة كشفت عن فهمه العميق لأبعاد نظريته ، وعن فقهه لأسرار العربية ، مما جعل كتاباته في هذه النظرية مصدرًا هامًّا للباحثين والدارسين من اللغويين والبلاغيين والأسلوبيين على حد سواء .

وقد بسط الرجل القول في كثير من أبواب علم المعاني ، كالتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والذكر والحذف ، والفصل والوصل ، وغير ذلك من القضايا التي صارت أسسًا لا غنى عنها في مجال الدراسات الأسلوبية والسياقية الحديثة .

ولغنى الكتاب بالأمثلة والشواهد التطبيقية نكتفي – هنا – بذكر نموذجين :

تعليقه على حذف المفعول في قول عمرو بن معدي كرب:

فَلَو أَن قَومي أَنطَقَتني رِماحُهُم  نَطَقتُ وَلَكنّ الرِماحَ أَجـرّت

يقول : وهذا نوع آخر من حذف المفعول ، " وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود ، قَصْدُهُ قد عُلِمَ أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، إلا أنك تطرحه وتتناساه وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذي مضى ، وذلك الغرض أن تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتنصرف بجملتها وكما هي إليه ، ومثاله قول عمرو بن معدي كرب :

فَلَو أَن قَومي أَنطَقَتني رِماحُهُم  نَطَقتُ وَلَكنّ الرِماحَ أَجـرّت

فـ " أجرت " فعل متعد ومعلوم أنه لو عداه لما عداه إلا إلى ضمير المتكلم نحو " ولكن الرماح أجرتني " وأنه لا يتصور أن يكون ههنا شيء آخر يتعدى إليه لاستحالة أن يقول : فلو أن قومي أنطقتني رماحهم ، ثم يقول : ولكن الرماح أجرت غيري ، إلا أنك تجد المعنى يلزمك أن لا تنطق بهذا المفعول ولا تخرجه إلى لفظك ، والسبب في ذلك أن تعديتك له توهم ما هو خلاف الغرض ، وذلك أن الغرض هو أن تثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس الألسن عن النطق وأن تصحح وجود ذلك ، ولو قال أجرتني جاز أن يتوهم أنه لم يعن بأن يثبت للرماح إجرارًا؛ بل الذي عناه أن يبين أنها أجرته ، فلما كان في تعدية "أجرت" ما يوهم ذلك وقف فلم يعد البتة ، ولم ينطق بالمفعول لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح وتصحيح أنه كان منها ، وتسلم بكليتها لذلك .

واعلم أن لك في قوله : "أجرت" فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل وهي أن تقول : كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ما يجر مثله، وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقًا ، وتعديتك الفعل تمنع من هذا المعنى؛ لأنك إذا قلت : ولكن الرماح أجرتني : لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة في كل شاعر قوم، بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يجر شاعرهم ، ونظيره أنك تقول : قد كان منك ما يؤلم ، تريد ما الشرط في مثله أن يؤلم كل أحد

وكل إنسان، ولو قلت : ما يؤلمني ، لم يفد ذلك، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك "[1] .

- تعليقه على التقديم والتأخير في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾[2]؛ حيث قدم النص القرآني كلمة " شركاء " على كلمة " الجن " ، و" ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسنًا وروعةً ومأخذًا من القلوب أنت لا تجد شيئًا منه إن أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله ، وأنك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر إلى الشيء الغُفْل الذي لا تَحْلَى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به إلى حاصل ، والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلا لا سبيل إليه مع التأخير، بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم - فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن ، وإذا أخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٠ - ١٧٢ بتصرف يسير.

(٢) الأنعام : جزء من الآية ١٠٠ ، وتمامها : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

٤ – أننا لا ندعى لعبد القاهر العصمة ، ولن نقبل كل ما يقول به دون تأمل أو نظر ، فلا بد من التفكر والروية ، فعلى الرغم من عمق ثقافة الرجل وأصالة نظريته ، فإنني أرى أنه لشدة إيمانه بنظريته ودفاعه عنها قد انصرف عن دراسة اللفظة أو الكلمة إلى دراسة الجملة أو التركيب بل دراسة السياق أو النظم ، لدرجة أنكر معها – أحيانًا – أن يكون للفظة أي مزية في ذاتها، يقول : " هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت من صاحبتها على ما هي موسومة به ، حتى يقال : إن رجلاً أدل على معناه من فرس على ما سمى به ، وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفًا عن صورته من الآخر ، فيكون الليث مثلاً أدل على السبع المعلوم من الأسد ، وحتى أنَّا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة رجل أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية "[1].

فلا شك أن دراسة الكلمة مفتاح لدراسة الجملة ، " وأن لجرس الألفاظ وقعًا إيجابيًّا كثيرًا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد إحساسه "[2] ، وأن الدراسات اللغوية والألسنية الحديثة قد أفادت من دراسة بنية الكلمة ومقاطعها كما أفادت من دراسة بنية الجملة والبنى التركيبية الأخرى .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٠.

(٢) في الميزان الجديد لمحمد مندور ص ١٨١.

### ج- ضياء الدين بن الأثير والسياق :

يعد ضياء الدين بن الأثير من الأدباء والنقاد الذين اقتفوا أثر الإمام عبد القاهر في العناية بالنظم ، ووضع كل كلمة في موضعها ، وضمها إلى أختها أو جارتها ، يقول : " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه ، وجل نظره "[1] .

فصاحب الصناعة – في منظور ابن الأثير – يحتاج إلى ثلاثة أشياء :

الأول : اختيار الألفاظ المفردة :

وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم .

الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها :

لئلا يجيء الكلام قلقًا نافرًا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه :

وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفًا[2]

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ق١ ص١٦٤.

(٢) الشنف : القرط.

في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر[1] .

**ومن خلال دراستنا للنظم أو السياق بين عبد القاهر وابن الأثير نسجل الآتي:**

١ – أن ابن الأثير كثيرًا ما نقل كلام عبد القاهر مع تجاهله إياه وعدم الإشارة إليه، ومن ذلك قوله : " وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2] أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث تلاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها .

فإن ارتبت في ذلك فتأمل ، هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها، وأفردت من بين أخواتها؛ كانت لابسة من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية ؟

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها ، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف

---

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٦٣.

(٢) سورة هود : الآية ٤٤.

أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها "[1] .

وهو عين كلام عبد القاهر الذي ذكره في دلائل الإعجاز[2] ، ومع أن ابن الأثير يكاد ينسخ كلام عبد القاهر نسخًا فإنه يدعي الفضل لنفسه، فيقول : " وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة وإمعان نظر، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي "[3] .

ولا أدري كيف غفل الدكتور عبد العزيز حمودة – وهو المنبهر بعبد القاهر وآرائه في دلائل الإعجاز – عن ذلك ، فنسب الفضل في هذا النص إلى ابن الأثير لا إلى عبد القاهر ؟! حيث قال معقبًا على نص ابن الأثير سالف الذكر : " هذا أنموذج جديد لضياء الدين بن الأثير يقدم مفهوم التعاقب دون مراوغة أو غموض ، ودون كهنوت حداثي ، وقبل أن يقول به ياكوبسون أو بارت أو آخرون من أقطاب الفكر الحداثي وما بعد الحداثي الغربي "[4] وكان الأولى بالدكتور/ حمودة أن ينسب هذا السبق إلى عبد القاهر لا إلى ابن الأثير .

٢ – مع اقتفاء ابن الأثير أثر عبد القاهر في النظم فإن الرجل لم يكن مجرد نسخة ثانية من الإمام عبد القاهر ، فقد كان له فكره وجهده الذي لا ينكر ، وكانت له إضافات تستحق الذكر والتقدير ، ومن ذلك :

(١) المثل السائر ق١ ص١٦٦.

(٢) انظر : دلائل الإعجاز ص٩٠ ، ٩٢.

(٣) المثل السائر ق١ ص١٦٧.

(٤) المرايا المقعرة ص٢٥٤ ، ٢٥٥.

أ – اختلاف نظرة ابن الأثير إلى اللفظة المفردة عن نظرة عبد القاهر إليها ، فإذا كان عبد القاهر لا يكاد يلتفت إلى اللفظة المفردة فإن ابن الأثير يجعلها أحد الأسس التي ينبني عليها النظم ، فأول شيء يحتاج إليه صاحب الصناعة هو " اختيار الألفاظ ، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم "[1] .

بل إنه لينحى باللائمة على من ينكرون التفاضل بين الألفاظ، ويسمهم بالجهلة ، يقول : " وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك ، وقال : كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسنًا ، ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة " الغصن " ولفظة " العسلوج " ، وبين لفظة " المدامة " ولفظة "الإسفنط " ، وبين لفظة " السيف " ولفظه " الخنشليل " فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا يجاوب ، بل يترك وشأنه ، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ، ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعر قطط[2] كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح ، وطرة [3] كأنها ليل على صباح .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد

---

(١) المثل السائر ق١ ص١٦٣.

(٢) شعر قطط : شديد التجعد.

(٣) الطرة : الناصية.

أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه[1] .

وإنني لأؤكد أن أي دراسة واعية للنظم أو السياق لا يمكن أن تتجاهل دراسة بنية الكلمة وما لها من قيمة معجمية أو صرفية أو صوتية ، على أن هذه القيمة لا تكتمل ولا تؤتي أكلها إلا من خلال السياق ، ووضع الكلمة في مكانها المناسب من النص .

ب – في مجال التطبيق لم يقف ابن الأثير عند المباحث أو الشواهد التي ناقشها عبد القاهر ، فقد أسهم ابن الأثير بكثرة شواهده وتطبيقاته ، وزيادة بعض الأبواب والتفاصيل والتفريعات التي تخدم قضية النظم ودراسة السياق ، وبخاصة دراسته القيمة للالتفات ، وتوكيد الضميرين ، والخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما، وتوسعه في أبواب التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والحذف[2] .

على أنه لم يكن بلاغيًّا تقليديًّا في دراسته وتناوله لهذه الموضوعات ، فقد كان له حس الناقد والأديب ، وبهذا الحس جاءت دراسته لكثير من الموضوعات أقرب إلى الدراسات الأدبية النصية أو المقاربات السياقية منها إلى الجوانب التقعيدية ، ونضرب مثالاً لذلك بتناوله لموضوع الالتفات وطريقة عرضه لشواهده ، فإنه لم يقف بموضوع الالتفات عند حدود الانتقال بين ضمائر التكلم والخطاب والغيبة ، بل توسع فجعله يشمل

---

(١) المثل السائر ق١ ص١٧٠ بتصرف يسير.

(٢) راجع: المصدر السابق ق٢ ص١٣٥ وما بعدها ، وص١٧٢ وما بعدها ، وص٢٠٩ وما بعدها.

الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، والانتقال من الماضي إلى الأمر ، والإخبار بالماضي عن المستقبل ، وبالمستقبل عن الماضي ، وباسم المفعول عن المستقبل ، محللاً شواهده في ذلك تحليلاً نصيًّا وسياقيًّا رائعًا ، ومن ذلك تعليقه على قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[1] .

يقول : ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي إلى لفظ المستقبل ، فقال : ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ولم يقل : أصبحت ، عطفا على ﴿أَنزَلَ﴾ ؛ وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان ، فإنزال الماء مضى وجوده ، واخضرار الأرض باق لم يمض ، هذا كما تقول : أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكرًا له ، ولو قلت : فرحت وغدوت شاكرًا له لم يقع ذلك الموقع لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى[2] .

ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3] حيث عدل عن الماضي إلى المستقبل في قوله تعالى : ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ، لأن كفرهم كان ووجد ولم يستجدوا بعده كفرًا ثانيًا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر يستأنف في كل حين[4] .

ثم يتحدث عن الإخبار بالماضي عن المستقبل ، فيقول : وفائدته أن

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٣.

(٢) المثل السائر ق٢ ص١٤٨ ، ١٤٩.

(٣) سورة الحج : جزء من الآية ٢٥.

(٤) المثل السائر ق٢ ص١٤٨.

الفعل الماضي إذا أخبر به عن المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، فإنه إنما قال : ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله : ﴿يُنفَخُ﴾ وهو مستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به[2] .

وكذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[3] ، فجاء قوله تعالى : ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ماضيًا بعد قوله تعالى ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿ وَتَرَى ﴾ ، وهما مستقبلان؛ للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ، ليشاهدوا تلك الأحوال كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم ، لأن من الناس من ينكره ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي[4] .

٣ – أكد ابن الأثير في وضوح على ضرورة مراعاة سياق النص وسياق الموقف معًا ، إذ ينبغي أن يكون نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها شأن ما يراعيه ناظم العقد من ضم كل لؤلؤة مختارة إلى أختها المشاكلة لها "لئلا

---

(١) سورة النمل : جزء من الآية ٨٧.

(٢) المثل السائر ق٢ ص١٤٩.

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٧.

(٤) المثل السائر ق٢ ص١٤٩ ، ١٥٠.

يجيء الكلام قلقًا نافرًا عن مواضعه"[1]، وهو ما يعبر عنه علم اللغة الحديث والدراسات اللسانية والأسلوبية والسياقية بسياق النص ، وينبغي – أيضًا – مراعاة مقتضى الحال والغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه[2] ، وهو ما يعبر عنه عند المحدثين المعاصرين بسياق الموقف .



(١) المثل السائر ق١ ص١٦٣.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

# المبحث الثالث

# نظرة النقاد المعاصرين إلى السياق

حازت قضية السياق اهتمامًا خاصًّا لدي كثير من الكتاب والنقاد المحدثين والمعاصرين باعتبارها اتجاهًا نصيًّا أو أسلوبيًّا يتوافق وتلك الرؤى التي تدعو إلى سبر أغوار النص والوقوف على أسراره الفنية والإبداعية، مع النظر بعين الاعتبار إلى المؤثرات الخارجية، تاريخية كانت أم اجتماعية أم نفسية ، إلى غير ذلك ، من غير الإسراف في الوقوف عندها .

ففي منطقة وسط بين تيار تقليدي يكاد يقتصر في دراسة النص على أبعاده التاريخية والعروضية والنحوية والبلاغية وفق معطيات تراثية محضة ، وتيار حداثي أو لغوي ألسني يريد أن ينسلخ بالنص من محيطه التاريخي والنفسي والجمالي إلى مستوى أحادي النظرة هو مستوى البنية اللغـــوية أو الألسنية .. في المنطقة الوسط بين هذين التيارين بدت دراسة السياق أحد أهم محاور الالتقاء والجمع بين ميزات هذين الاتجاهين ، ورأى كثير من النقاد في دراسة السياق ، والانطلاق من الأصول اللغوية والبلاغية إلى الدراسات اللغوية والألسنية الحديثة ما يمكن أن يؤسس لنظرية نقدية عربية لا تنقطع عن ماضيها وتراثها ولا عن حاضرها ومعطيات عصرها ؛ بل تأخذ من القديم ما تبنى عليه جديدها ، أو ما يؤسس لمنهج نقدي عربي

حديث يستمد أصالته من تراثيته وحداثته معًا .

على أن هناك من الكتاب من وقف موقفًا مترددًا بين التأسيس لهذا الفهم ، والانبهار أو الانقياد المطلق وراء الحداثة الغربية بكل معطياتها.

وهناك فريق آخر وقف موقفًا معاديًا لكل ما هو تراثي ، أو عربي ، أو إسلامي ، محاولًا سلخ النص من كل محيطاته ليحمله رؤيته الخاصة فيما يطلقون عليه : " تعدد الدلالة " ، " لا نهائية الدلالة " ، " فوضى الدلالة " ؛ فما دام هناك قارئ أو متلق فهناك دلالات تتعدد بل تتجدد وفق ثقافة هذا المتلقي أو مزاجه لحظة التلقي ، حيث لا ثبات ولا قداسة لشيء ، بل هي " فوضى خلاقة " وفق ما يدّعون ، وهدامة لكل ما هو مقدس وفق ما يريدون .

ونعرض في هذا المبحث رؤية بعض النقاد المعاصرين للسياق :

## محمد عبد المطلب والسياق :

أفرد الدكتور/ محمد عبد المطلب للسياق بمفهومه الأدبي فصلاً خاصًّا في كتابه " البلاغة والأسلوبية "[1]، وبقراءة ما كتبه عبد المطلب في هذا الفصل حول السياق وما جاء منثورًا في ثنايا كتابات أو موضوعات أخرى له

(١) انظر: البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص٣٠٥ وما بعدها، (سلسلة أدبيات)، عدد رقم (١٤)، نشر شركة أبي الهول، القاهرة.

نخلص إلى الآتي :

١ – أن د/ محمد عبد المطلب حاول قراءة نظرية السياق في ضوء أصولها التراثية البلاغية والنقدية ، مؤكدًا أن البلاغيين القدماء قد لاحظوا ظاهرة السياق من خلال مقولتهم الدقيقة: بأن : لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة السياق وربطها بالصياغة ، أو بعبارة أدق ربط الصياغة بالسياق ، وأصبح مقياس الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به[1] .

وعرض جانبًا من تطبيقاتهم في دراسة سياقات الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، منتهيًا إلى القول بأن البلاغيين في رصدهم لهذه السياقات كانوا يتحركون من منطلقين[2] :

الأول: يتمثل في تحديد الإمكانات التعبيرية في اللغة وما ينتج عنها من تطبيقات في الكلام الإبداعي أو الإخباري على حد سواء .

الثاني: التنوع في المحيط الأسلوبي الذي يرتبط بالموقف الكلامي، والاهتمام بدراسة هذا المحيط الذي على أساس منه تستقر الصياغة في سياقها المحدد ، بحيث يأخذ منها هذا السياق بقدر ما يعطيها .

٢ – أن د/ محمد عبد المطلب قد انحاز إلى جانب ابن الأثير ومن سار على منواله في الاعتداد بقيمة اختيار اللفظة المفردة أولاً ، ثم وضعها في سياقها الذي يتطلبها ثانيًا ، على أن أحد الأمرين لا يتم بمعزل عن

---

(١) البلاغة والأسلوبية ص٣٠٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٤٨ ، وانظر: ص٣٢٦.

الآخر ولا ينفصل عنه ، يقول : " عندما يعمد المبدع إلى تكوين جملة لغوية يقوم بعمليتين متكاملتين : في الأولى يجري اختبارًا في مفردات مخزونه اللغوي ، وفي الثانية يجري عملية تنظيم لما تم اختياره ، بحيث يتلاءم هذا التنظيم مع النسق الذي يدور فيه الكلام "[(1)] .

٣ – يرى د/ محمد عبد المطلب أن فكرة السياق نالت جهدًا من النقاد القدامى لكنها لم تكن متبلورة تمامًا ، بحيث كان السياق في الأعمال القديمة ينصب على معنى العبارة المفردة أو على معنى عدة عبارات تدرس بصورة انتقائية من النص ، فخاصية النظرة الشاملة لم تتوفر لهم بدءًا من رصدهم للفظة إلى تحليلهم للجملة ، فقد نظروا إليها بشكل مستقل ، في حين " أن النظرة الشمولية لو استطاعت أن تمد بصرها إلى ربط السياقات المختلفة بعضها ببعض لأمكن تبين التكوين الكامل لبناء العمل الأدبي ، من حيث خواصه اللغوية وخضوعها لقوانين تخلق النظام فيه ، وهي قوانين تركيبية لا تقتصر فقط على مجرد الربط بين سياقات متراكمة ، ولكنها تخلق من المجموع كيانًا جديدًا له ملامحه المتميزة "[(2)] .

ومع تقديرنا لعبد المطلب وجهوده الرامية إلى الإسهام في تشكيل نظرية عربية في النقد الأدبي ، تنطلق من قراءة الموروث النقدي عند العرب[(3)] ، ومحاولة البناء عليه في ضوء الدراسات الحديثة والعصرية بما

---

(١) البلاغة والأسلوبية ص٣٠٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٤٩.

(٣) راجع كتابه: جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ص٤-٦ سلسلة أدبيات ، عدد رقم (١٥)، نشر شركة أبي الهول بالقاهرة، سنة ١٩٩٥م.

يحفظ لنا هويتنا الثقافية ، بحيث لا ننسلخ عن ماضينا ولا ننعزل عن حاضرنا – فإنني أؤكد على ما يأتي :

١ – أننا لا ينبغي أن نحاكم التراث في ضوء معطيات عصرنا الحديث ، فالعلوم والفنون لا تولد مكتملة ، وسنة التطور تقتضي أن يبنى اللاحق على ما أتى به السابق ، وأن الكلمة الأخيرة في الأدب والنقد لم ولن تقال بعد .

٢ – أن جهود نقادنا القدامى في دراسة السياق تعد ركيزة قوية ، ومنطلقًا واسعًا للدراسات السياقية والأسلوبية الحديثة التي يعتبر أكثرها الإمامَ عبد القاهر الأب الروحي والمصدر الرئيس لهذه الدراسات ، بل إن بعض الكتاب يؤكد أن أكثر القضايا السياقية والأسلوبية الحديثة ترجع في أصولها إلى ما كتبه البلاغيون والنقاد القدماء ، وبخاصة ما كتبه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وما كتبه ابن الأثير في المثل السائر ، وهو ما نفصله في نظرة د/ عبد العزيز حمودة إلى السياق في الصفحات التالية[١] .

٣ – أن د/ عبد المطلب نفسه يعترف بأن بعض النقاد القدماء قد حاول تجاوز النظرة إلى اللفظة أو الجملة إلى النظرة العامة للسياق ، يقول : إن الذي ندعو إليه هو محاولة تخطي النظرة الضيقة التي تجعل من الجملة كلامًا قائمًا بذاته – إلى اعتبار الجملة جزءًا من كل تتصل به اتصالاً عضويًّا ، وتتفاعل معه في عمليات مقصودة تكشف عن نظام النص ، بحيث تدرك

---

(١) انظر : ص ٨٤–٨٧ وما بعدها.

القيمة الحقيقية لسياق الحذف من خلال السياق الأعم كسياق الإيجاز مثلاً ، والقيمة الحقيقية لسياق الذكر من خلال السياق الأعم كسياق الإطناب ، بحيث يكون السياق في نهاية الأمر صورة للعلاقات الجزئية التي تتيح لنا عملية الفهم وإدراك التكوين الشمولي .

ثم يؤكد بنفسه أن هذا هو ما حاوله ابن الأثير ، يقول : " وأعتقد أن ابن الأثير قد بدأ هذه المحاولة في المثل السائر عندما درس ألوان الحذف وأضربه وسياقاته تحت باب الإيجاز ، كما درس ألوان الذكر وأضربه وسياقاته تحت باب الإطناب ، وهي محاولة يمكن تنميتها في مجال البحث البلاغي الحديث ، وربطه بالدراسة الأسلوبية من حيث يصبح الكل له الأهمية الأولى أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء ، وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء أو توقف تأثيره في السياق "[1] .

وهنا نتوافق معه في القول بضرورة أن نأخذ محاولات نقادنا وأدبائنا القدماء بعين الاعتبار ، ونعمل على تنمية ما يسهم منها في بناء نظريتنا النقدية العربية إن كنا نسعى جادين إلى العمل على تحقيق هذه النظرية .

ونؤكد على أن القول بتصويب النظرة إلى الكل مع عدم إلغاء الجزء أو توقف تأثيره في السياق هو عين ما نادى به ابن الأثير في كتابه " المثل السائر " وقد أشرت إلى ذلك في الحديث عن رؤية ابن الأثير للسياق[2] .

---

(١) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ص٣٤٩ ، ٣٥٠.

(٢) راجع: ص ٧٠ وما بعدها.

## عبد العزيز حمودة والسياق :

يعد د/ عبد العزيز حمودة من أبرز الكتاب والنقاد المتحمسين لتبني نظرية نقدية عربية بصفة عامة ، ودراسة السياق والانطلاق منه لبناء هذه النظرية بصفة خاصة .

يقول : " إن الخروج من التيه النقدي الذي أدخلتنا فيه المذاهب والاستراتيجيات والاتجاهات الحداثية وما بعد الحداثية الغربية يفرض علينا البحث عن نظرية عربية بديلة تلقي عندها سفينة الثقافة العربية مراسيها حماية لها من أنواء المشهد الدولي ثقافيًّا وسياسيًّا "[(١)] .

وإننا لا نستطيع تجاهل إنجازات البلاغة العربية باعتبارها جذورنا التي يمكن أن تطعم بالجديد والمختلف لتثمر شيئا خاصًّا بنا ، هو – في نهاية الأمر – هويتنا الواقية[(٢)] .

ويرى حمودة أننا لو لم نمارس قطيعة معرفية مع بلاغتنا العربية القديمة وتراثنا لكنا قد تمكنا من تطوير الخيوط التي توفرت لدينا في جديلة متينة قوية في القرن العشرين[(٣)] .

ويرى في كتابات النقاد والبلاغيين العرب – وبخاصة كتابات عبد القاهر في الدلائل والأسرار ، وعلى وجه أخص ما يتصل بقضية النظم – ما

---

(١) الخروج من التيه : دراسة في سلطة النص، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٧٦، سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم (٢٩٨)، إصدار رمضان ١٤٢٤هـ / نوفمبر ٢٠٠٣م.

(٢) المرجع السابق ص٣١٣.

(٣) المرجع السابق ص٢٧٦.

يمكن أن يؤسس أو ينطلق منه لبناء نظرية نقدية عربية ، وأن هذا الفهم لا يعني العزلة عن معطيات العصر ، أو رفض الآخر الثقافي ، بل إنه يقوم على الاتصال بالآخر الثقافي من ناحية وبجذورنا البلاغية من ناحية أخرى ، وأن هذا المشروع سوف يكون هويتنا الواقية في مرحلة نضجه[1] .

ويقول : إن قراءة التراث اللغوي والنقدي العربي في عصره الذهبي لا يمكن إلا أن تؤدى إلى حقيقتين ساطعتين[2] :

الأولى : أن الحياة الأدبية العربية كانت لمدة أربعة أو خمسة قرون تموج بالتيارات اللغوية والنقدية بصورة لا تقل عن حركة الحياة الأدبية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وأن ذلك كله بدأ ووصل إلى ذروته ثم انتهى في وقت كانت أوروبا أثناءه تعيش عصر الظلام والجهالة .

الثانية : أن ذلك التراث لو تمت قراءته وغربلته دون انبهار بمنجزات العقل الغربي سوف يتبقى منه الكثير الذي كان قادرًا على تطوير نظرية لغوية ونظرية نقدية متكاملتين .

ويرى أن النسق أو النظام في المنظور الحديث بل البنيوي لا يضيف الكثير إلى مفهوم النظم كما تتابع النقاد العرب على شرحه قبل عبد القاهر وبعده[3] ، وأن عبد القاهر يمثل نقطة الذروة في الحديث عن نظرية النظم العربية[4] .

---

(١) انظر : الخروج من التيه ص٢٧٥ ، والمرايا المقعرة ص١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤.

(٢) المرايا المقعرة ص١٩٤.

(٣) المرجع السابق ص٢٢٦.

(٤) المرجع السابق ص٢٤٨.

ويتتبع حمودة جهود البلاغيين والنقاد العرب في دراسة النظم أو السياق، فيعرض لبعض آراء الجاحظ، والقاضي عبد الجبار، والخطابي، وعبد القاهر، وابن سنان الخفاجي، وضياء الدين بن الأثير ، وحازم القرطاجني، وغيرهم[1] .

ومن يراجع كتابه " المرايا المقعرة " يدرك مدى حماس الرجل وتبنيه لقضية النظم ودراسة السياق[2] ، حيث يؤكد أنها تشكل أساسًا قويًّا للنظرية النقدية العربية المنشودة ، وأنها جمعت كثيرًا من مفردات النسق الحداثي"[3] .

ويرى أن البلاغة العربية وبخاصة دراسة النظم أو السياق قد تجاوزت المعطيات اللغوية التي توقف عندها النقاد البنيويون وما بعد البنيويين ، يقول : إن تعامل البلاغي العربي مع النص يقدم نموذجًا نقديًّا لا يختلف في جوهره عن النموذج البنيوي مع فارق جوهري ، هو أنه لا يتوقف في جمود عند آلية تحقق الدلالة ، بل يتخطاها إلى المعنى نفسه وماهيته ، وهكذا جاءت الممارسة النقدية العربية مزيجًا مبكرًا من النقد التحليلي والنقد البنيوي[4] .

ويكفي القارئ أن يتوقف عند عبد القاهر الجرجاني وحده ليدرك

---

(١) المرايا المقعرة ص٢٢٥ وما بعدها.

(٢) راجع : المرجع السابق ص٢٢٥ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ص٢٢٦ ، وقد سبق التعليق على ذلك ص٦٢.

(٤) المرجع السابق ص٣٢٣.

ذلك الانشغال بطـريقة قيـــام اللغـة بالدلالة من ناحيـــة ، وماهية الدلالة أو المعنى الذي تدل عليه تلك اللغة من ناحية أخرى ، فاللغة عنده وحدة لا تنفصل فيها الصورة الشعرية عن التعبير الأدبي ، بل هي جزء لا يتجزأ منه، لا تستمد قيمتها إلا من النظم ، ولا تكتسب قيمتها إلا من السياق؛ بل إن تفسيرها وفهم معناها لا يمكن تحقيقه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته[1] .

## نظرة بعض الكتاب والنقاد الآخرين للسياق :

طبعي أن الحديث حـــول السياق لم يكـــن قصـــرًا على عدد معين أو محدد من الكتاب ، فقد عبر كثير من الكتاب والنقاد عن وجهة نظرهم في دراسة السياق وأثره في النص الأدبي سواء من جهة التنظير أم من جهة المقاربات النقدية التطبيقية لبعض النصوص .

ومن هؤلاء الكتاب د/ صلاح فضل الذي يؤكد أن مناقشة معنى كلمة أو جملة دون ربطها بسياقها في الفقرة أو القطعة أو الفصل أو القول كله تقود إلى أخطاء متتالية في الفهم والتفسير ، وتفسير التعبير الأدبي ليس سوى توضيح دلالته ، وبهذا فإن على علم الأسلوب أن يشرح تلك الدلالة ، وهي دلالة النسيج[2] .

---

(١) المرايا المقعرة ص٣٢٤ ، نقلا عن قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث لمحمد زكي العشماوي ص٣١٩، ط/ دار الشروق القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

(٢) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص١٠٥.

بل إنه يتجاوز دراسة سياق النص إلى دراسة سياق الموقف فيقول : بالإضافة لهذه السياقات النصية هناك سياق آخر هو الذي يطلق عليه علماء اللغة اسم سياق الموقف ، وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند الدراسة الأدبية للأسلوب ، ما دمنا نريد أن نجرى عليه اختبارًا جادًّا في نطاق تحليل أدبي مكتمل[١].

ويرى أن استخدام مصطلح " السياق " هو التعبير الأمثل والأدق في دراسة تحليل النصوص ؛ لأنه يشمل دراسة العناصر اللغوية وغير اللغوية ، فكل نص أو مشهد يتصل بسياقات متعددة ، بعضها يمكن تحديده بطريقة شكلية أو لغوية ، وبعضها يمكن تحديده في ضوء سياق الموقف الذي يشمل المتكلم والمستمع وعلاقاتهما وبيئتهما[٢] .

كما يرى أن التحليل الإحصائي للأسلوب لا بد أن يدخل في حسابه عاملاً جوهريًّا هو السياق " إذ إن الإحصاءات المتصلة بالعناصر الفردية عندما تغفل السياق تفقد دلالتها الأسلوبية "[٣] .

وتتحدث الدكتورة/ حكمت صباغ الخطيب المعروفة بيمنى العيد عن مفهوم النسق ، فتقول : " يتحدد هذا المفهوم في نظرتنا إلى البنية ككل ، وليس في نظرتنا إلى العناصر التي تتكون منها وبها البنية ، ذلك أن البنية ليست مجموع هذه العناصر ، بل هي هذه العناصر بما ينهض بينها

(١) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته ص٢٥٠.

(٢) المرجع السابق ص٢٤٤.

(٣) المرجع السابق ص٢٦٩.

من علاقات تنتظم في حركة ، فالعنصر خارج البنية غيره داخلها ، وهو يكتسب قيمته داخل البنية ، وفي علاقته ببقية العناصر أو بموقعه في شبكة العلاقات التي تنتظم العناصر ، والتي تنهض بها البنية فتنتج نسقها ، والعلامة اللغوية عنصر تتحدد قيمته بموقع وجوده في منظومة العلاقات ، فالماء – مثلاً – رمز في القصيدة العربية ، قيمة هذا الرمز ودلالته في بنية نص شعري جاهلي غير قيمته ودلالته في بنية نص شعري للسياب ، ففي البنية أو في الكل الذي له نسقه يكتسب الرمز قيمته وليس العكس[1] .

ويقول د/ ردة الله الطلحي : لم يعد السياق مرجعية عائمة تردف به نتائج تحليل المعنى أو تفسيره حين يقال: دل عليه سياق الكلام ، أو حذف لدلالة السياق ، ونحو ذلك ، فقد أضحى السياق كيانًا يتجلى في جملة العلاقات المعجمية والتركيبية التي تصف النص بالالتحام أو التماسك أو الاتساق ، سواء في داخله أم مع الموقف الذي ورد فيه النص[2] ، كما أنه ذو اعتبار هام في فهم الأسلوب وتوجيه دلالته[3] ، بل يمكن القول بأن السياق هو الذي يصنع الدلالة أو يكشفها على اعتبار حال المتكلم أو المتلقي[4] .

---

(١) في معرفة النص : دراسات في النقد الأدبي، د/ حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد) ص٣٢ ، ٣٣، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م.

(٢) دلالة السياق، د/ ردة الله بن ضيف الطلحي ص٦٢٩.

(٣) المرجع السابق ص٥٣٨.

(٤) المرجع السابق ص٥٣٩.

ويذهب د/ وهب أحمد رومية إلى أن السياق هو منبع العلاقات والهوية والانتماء، ففي السياق تتجلى علاقة الذات الشاعرة بالآخر واشتباكها به[1] ، ويرى أن البنيوية الشكلية عزلت النص الأدبي وأغفلت مرجعه ، واكتفت بالنظر في عناصر البنية وفي نظام حركة هذه العناصر ، وعجزت أن تفسر بنيويًّا الانتقال من بنية إلى أخرى ، فكشفت عن كونها بنيوية مغلقة .

وقد أدرك بعض النقاد البنيويين هذا القصور فأخذوا يعيدون النظر في هذا المفهوم ، ويقيمون العلاقة ويوطدون الأسباب بينه وبين مجاله الثقافي والاجتماعي حرصًا على علاقة النص الأدبي بالواقع من جهة ، وعلى أدبيته من جهة أخرى ، فليس النص الأدبي – على تميزه واستقلاله – بنية معزولة ، بل هو بنية موجودة في بنية محيطه ؛ أي: هو بنية وهو في الوقت نفسه عنصر في بنية أخرى[2] .

## ونخلص من كل ما تقدم إلى الآتي :

أ – أن الكتاب والنقاد المحدثين والمعاصرين عندما تحدثوا عن نظرية السياق لم يخلقوا نظرية من العدم ، إنما تابعوا في ذلك النقاد المتقدمين ، فنهلوا من معينهم ، وبنوا على أساسهم .

(١) شعرنا القديم والنقد الجديد، د/ وهب أحمد رومية ص١٧٢ ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد رقم (٢٠٧)، سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) المرجع السابق ص١٦٢.

ب – أن النقاد القدماء وإن كان أكثرهم لم ينص صراحة على مصطلح السياق فإنهم كانوا على وعي دقيق بمقتضياته ، وقاربوا هذه المقتضيات سواء في ضوء نظرية النظم أم تحت مسميات أخرى ، كمقتضى الحال والمقام ، وحسن التأليف ، وجودة السبك ، وصحة النسج ، ومقتضيات الصياغة، والتئام اللفظ والمعنى ، ونحو ذلك .

ج – أن المحدثين – أيضًا – كانت لهم مشاربهم المختلفة ، فمنهم من تحدث في صراحة ووضوح عن نظرية السياق ، ومنهم من تناوله أو قاربه من خلال مصطلحات أخرى ، كالنسق ، أو النظام ، أو البنية .

د – أن المحدثين والمعاصرين فصلوا ما أجمله النقاد المتقدمون وحاولوا تقنينه ، فبعد أن كان الأمر في جملته يدور حول النظم ومقتضى الحال والمقام صار الأمر عند النقاد المحدثين والمعاصرين أكثر تفصيلاً ، ففرقوا بين سياق النص بمستوياته الصوتية والتصريفية والمعجمية والتركيبية أو الدلالية ، وسياق الموقف ، وسياق الثقافة أو ما يعرف عند بعضهم بالسياق الكبير ، وعند بعضهم بالسياق الأكبر .

هـ – أن الفارق بين رؤية القدماء والمعاصرين للسياق هو أن دراسة القدماء للسياق عنيت إما بدراسة الجملة أو العبارة ، أو بدراسة الكلمة وموقعها من الجملة ، فالجملة هي محور الدراسة السياقية لدي البلاغيين والنقاد القدماء .

أما النقاد المحدثون والمعاصرون فقد تطلبوا دراسة سياقية للنص برمته ،

تتدرج من المستوى الصوتي إلى المعجمي ، فالسياق الصرفي ، فالنحوي ، فسياق النص الدلالي والتركيبي ، فسياق الثقافة الذي يشمل الموقف ، والتاريخ ، والزمان ، والمكان ، وسائر الجوانب التي يمكن أن تضيء أو تسهم في تفسير النص ، مع عدم عزل أي سياق منها عن سياقات النص الأخرى ، فالسياق عندهم لا ينبغي أن يشمل الكلمات والجمل السابقة واللاحقة فحسب ، بل القطعة كلها ، أو النص كله ، أو الكتاب كله ، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات .

لقد وضعت نظرية السياق عند النقاد المعاصرين مقاييس لشرح البنى النصية وتفسيرها وتحديد دلالتها من خلال موقعها واندماجها في سلسلة من السياقات ، " أي سياقات كل واحد منها ينضوي تحت سياق آخر ، ولكل واحد منها وظيفة في نفسه ، وهو سياق في سياق أكبر ، وفي كل السياقات الأخرى ، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة "[(1)] .

على أن هذا التنظير لا نجد له صدى يذكر في مجال الدراسات التطبيقية ، فعند التطبيق دار الكتاب والنقاد المعاصرون المهتمون بالسياق في فلك الدراسات البلاغية والنقدية القديمة ، فتحدثوا عن الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والفصل والوصل[(2)] ،

(١) دلالة السياق، د/ ردة الله الطلحي ص٢٠٤ ، وراجع: ص٢٠٣-٢٠٥ ، وقد تأثر ردة الله في ذلك ببعض النقاد الغربيين من أمثال فيرث ، واستيفن أولمان ، وبالمر، ونقل بعض ما كتبوه في هذا الشأن ، وانظر في ذلك أيضا : علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص٢٥.

(٢) انظر: البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص٣١٣ وما بعدها.

وعلاقات المجاز المرسل[1] ، ومعاني بعض الحروف والأدوات[2] ، والفعل والفاعل ، والمبتدأ والخبر ، والحال وصاحبها ، والنعت والمنعوت[3] وأنواع الجملة ، وأساليب الاستفهام ، والأمر، والنهي ، والنداء[4] ، كل على حدة في دراسة لا تكاد تخرج عما ألفناه في كتب البلاغة العربية .

وقد اتخذت بعض الدراسات خطًّا رأسيًّا ، فتدرس ظاهرة التقديم والتأخير ، أو الحذف والذكر ، أو التعريف والتنكير ، في نص ما أو ديوان ما، وقد تدرس هذه الظواهر الأسلوبية في عمل أدبي ما ، لكنها تدرس كل سياق منها على حدة ، دون أن تربطه بالسياقات الأخرى ، وغالبًا ما تلجأ إلى الدراسة الإحصائية ، وهو ما يدعونا إلى التفرقة بين الدراسات السياقية وغيرها من الدراسات النصية الأخرى ، وبخاصة الأسلوبية الإحصائية .

## وقفة بين الدراسات السياقية والدراسات النصية الأخرى :

الدراسات السياقية لا تعزل النص عن المعطيات الخارجية التي يمكن أن تضيء بعض جوانبه الإبداعية ، فإنها - وإن كانت تركز على سياق النص وبنيته اللغوية والتركيبية - لا تهمل سياق الموقف ، بل تحاول الإفادة منه في تفسير سياق النص .

أما الدراسات اللغوية أو الألسنية أو الأسلوبية الإحصائية فإنها لا تعني

(١) انظر : دلالة السياق لردة الله بن ضيف الطلحي ص٣٢٨ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص٣٩٥ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ص٤٠٥ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق ص٤٨٢ وما بعدها.

سوى بمعطيات النص اللغوية ، يقول د/ عبد العزيز حمودة : حينما يتبنى البنيويون الأدبيون البنيوية اللغوية يرثون النموذج اللغوي بسلبياته كاملة ، وأبرزها – بالطبع – ذلك الانشغال الكامل بالكيف دون المعنى ، ولا يشذ البنيويون الماركسيون عن ذلك رغم محاولاتهم المستمرة لتحديد منطقة وسط يحققون فيها نوعًا من التزاوج المستحيل أو الصعب على أقل تقدير بين استقلالية البنية اللغوية وقدرتها على أداء وظيفتها الدلالية في علاقتها مع البنى اللغوية الأخرى داخل النص الأدبي من ناحية ، وارتباطها بعناصر البنية التحتية من قوى الإنتاج والصراع الطبقي من ناحية أخرى، وهكذا حينما ننتقل إلى مقاربة نص أدبي ماض متطور بنيوي فإن همنا الأول والأساس هو البنى والوحدات اللغوية في علاقتها بعضها ببعض من ناحية، وفي علاقتها بالنظام الكلي الذي يفرضه النوع من ناحية أخرى التركيز إذن يكون على الدالات أما الدلالات فلا تهم الناقد البنيوي كثيرًا[1] .

وقد تنبه بعض المتحمسين للدراسات اللغوية الألسنية والدراسات الأسلوبية الإحصائية للمخاطر التي يمكن أن يجرها الاعتماد المطلق على هذه المناهج دون مراعاة أثر الأبعاد السياقية الأخرى على النص ، يقول د/ صلاح فضل : " وربما كان من الملائم للنقاد الاعتراف بأن هناك وضعًا خاصًّا مقلقًا لهم ، يتمثل في عدم التوازن في معرفة أبعاد النص اللغوية وغير

(١) المرايا المحدبة: من البنوية إلى التفكيك، د/ عبد العزيز حمودة ص١٠٣، نشر سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم (٢٣٢)، إصدار ذي الحجة ١٤١٨هـ / أبريل ١٩٩٨م.

اللغوية ، الأمر الذي يعد من مظاهر أزمة الشعرية المعاصرة ، فالبحث الألسني المحدث قد أدرك درجة عالية من التقدم في التعرف العلمي على الأبنية المادية اللغوية للنص الأدبي في مقابل تواضع معرفة واختبار بقية الأبعاد التصورية والتخيلية والجمالية المكونة لهذا النص ، هذه الأبعاد التي تعتبر حاسمة في تحديد خواصه الشعرية[١] .

فالدلالة الشعرية لا تقتصر على معطيات الدلالة اللغوية العامة ، بل تتمثل في محصلة التداخل البنيوي لمجموعة الأبنية التعبيرية المتعالقة ، فالبنية الإيقاعية مثلاً تعد شفرة إضافية شعرية لا تقتضيها الأنظمة الصوتية اللغوية مع أنها منبثقة عنها ، لكنها تقوم بدور مركزي في تجربة الشعرية العربية حضورًا وغيابًا ، بحيث أوشكت أن تظل بؤرة الاستقطاب النوعي لجنس الشعر على مر العصور[٢] .

ويؤكد د/ صلاح فضل في أكثر من موضع أن من نقط الضعف الخطيرة في الدراسة الإحصائية للأسلوب أنها لا تقيم عادة حسابًا لتأثير السياق ، مع أننا نعرف من الدراسات التطبيقية أن السياق له دور حاسم في التحليل الأسلوبي ، الأمر الذي دعا بعض الباحثين إلى إدخال التحليل السياقي المقارن كشرط أساس في الحساب الإحصائي للملامح الأسلوبية[٣].

---

(١) الأساليب الشعرية المعاصرة، د/ صلاح فضل ص٢٠، ط/ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) المرجع السابق ص١٥.

(٣) راجع : مجلة فصول : المجلد الرابع ، العدد الأول أكتوبر– ديسمبر١٩٨٣ (مقال بعنوان : (من

وينقل عن استيفن أولمان قوله : إن التحليل الإحصائي للأسلوب لا بد أن يدخل في حسابه عاملاً جوهريًّا هو السياق[1] .

ويؤكد أن المنهج الإحصائي أشد غلظة وأكثر بدائية من أن يلتقط بعض الظلال المرهفة للأسلوب ، مثل : الإيقاعات العاطفية ، والإيحاءات المستثارة ، والتأثيرات الموسيقية الدقيقة [2] .

وهو ما يؤكده – أيضًا – الناقد العراقي الدكتور/ ضياء خضير بقوله : ومن المعروف أن بعض النقاد المحدثين قد دعوا إلى مراجعة مبدأ الإحصاء في نقد الأدب مراجعة جذرية ، إذ ينبغي التخلي عن الفرضية التي ترى أن ارتفاع نسبة التوتر في الكلمة كاف ليجعل منها كلمة مفتاحًا ما لم يترافق ذلك بأمور أخرى ينطوي عليها السياق العام للنص[3] .

ويرى أن الاتجاهات النقدية الجديدة بانهماكها الكبير في فحص آليات النص الشكلية والبنيوية نسيت أو تناست المستوى الدلالي للنص الأدبي عمومًا والنص الشعري خصوصًا ، واكتفى بعضها بملامسة المستوى الدلالي ملامسة محدودة وجزئية وشكلية أو لغوية في الغالب ، فيما أحجمت مقاربات أخرى عن النص الأدبي وبخاصة النص الشعري بوصفه

---

الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية)، د/ صلاح فضل ص١٣٨، وعلم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص٢٧٠.

(١) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص٢٦٩.

(٢) مجلة فصول : العدد السالف الذكر ص١٣٨.

(٣) شعر الواقع وشعر الكلمات : دراسات في الشعر العراقي الحديث، د/ ضياء خضير ص٣٥، نشر اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ٢٠٠٠ م.

بنية ألسنية مكتفية بذاتها ، وليست بحاجة إلى أي مرجع خارجي ، أو وقوف أمام دلالة أو معنى محدد[1] .

ومن ثمة كانت أهمية الدراسات التطبيقية السياقية باعتبارها جامعة بين الاتجاهات اللغوية الألسنية والأسلوبية بكل أبعادها ، والإفادة من الإضاءات والمؤثرات الأخرى كأثر الزمان والمكان ، والملابسات العقدية أو المذهبية ، أو التاريخية ، أو الاجتماعية ، أو النفسية ، التي يمكن أن تضيء بعض جوانب النص ، بل إن بعض جوانب النص أو البنى النصية أو التركيبية لا يمكن أن تفسر تفسيرًا صحيحًا إلا في ضوء هذه المعطيات .

ويمكن القول : إن الأصل في الدراسة السياقية هو النص مع عدم طرح أو إغفال المؤثرات الأخرى عند دراسته ، فسياق الموقف وسياق الثقافة لا يقصدان لذاتهما ، إنما يستدعيان عند الحاجة لكشف بعض الجوانب الفنية أو الجمالية في النص ، والوقوف على بعض أسراره الإيقاعية أو الدلالية أو التركيبية .



(١) شعر الواقع وشعر الكلمات : دراسات في الشعر العراقي الحديث ص٢٠ ، ٢١.

# الفصل الثالث

# العدول
# بين القدماء والمحدثين
# "دراسة نقدية"

**وفيه ثلاثة مباحث :**

**المبحث الأول: مفهوم العدول والعلاقة بينه وبين الانحراف.**

**المبحث الثاني: الجذور التراثية لمصطلح العدول.**

**المبحث الثالث: العدول عند المحدثين.**

# المبحث الأول

# مفهوم العدول والعلاقة بينه وبين الانحراف

## أولاً : مفهوم العدول

### أ- في اللغة :

يقال : عدل عن الشيء يعدل عدلًا وعدولًا إذا مال عنه إلى غيره ، وعليه قول المرّار :

فَلَمَّا أَنْ صرمتْ وَكَانَ أَمْرِي    قَوِيمًا لَا يَمِيلُ بهَ العدُولُ

أي : لا يميل به عن طريقه الميل [1] .

ويقال : عدل عن الطريق إذا حاد عنه ، وعدل عن الشيء تركه ، وعدل الفحل عن الإبل إذا ترك الضراب .

فعدل عن الأمر : مال أو انصرف عنه ، وعدل إليه : رجع ، وعدل في أمره عدلًا وعدالة : استقام ، وفي حكمه : حكم بالعدل .

وعدل الشيء : قوّمه وسوّاه ، يقال : عدلته فاعتدل ؛ أي سويته فاستوى ، وقومته فاستقام ، وعليه قول عمر بن الخطاب ﷺ : الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني كما يعدل السهم في الثقاف ، أي: قوموني[2] .

(١) لسان العرب لابن منظور : مادة (عدل) .

(١) لسان العرب : مادة (عدل) ، وانظر في معاني المادة : الصحاح للجوهري ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز : مادة (عدل).

فالمادة تدور حول عدة معان ، منها :

١- الترك ، والانصراف ، والميل عن الشيء إلى غيره .

٢- الاستقامة والتقويم .

## ب- العدول اصطلاحًا :

يعرف بعض الكتاب العدول بأنه : نوع من الخروج على الاستعمال العادي للغة، بحيث ينأى الشاعر أو الكاتب عما تقتضيه المعايير المقررة في النظام اللغوي[١] .

ويعرفه بعضهم بأنه: رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف[٢].

والفرق بين التعريفين هو أن التعريف الأول ينصب على عمل المبدع شاعرًا كان أم كاتبًا ، والتعريف الثاني ينبني على عمل الناقد الذي يقوم برصد عملية العدول والانحراف .

والتعريف الأول أدق لأمرين :

١ – أن عملية الإبداع تسبق عملية النقد ، وليس شرطًا في كل عملية إبداعية أن تتبعها مقاربة نقدية ، فثمة تجارب إبداعية لا يتناولها النقد إلا بعد مضي زمن طويل على إنشائها ، وثمة أعمال أخرى لا يقترب منها النقد الفني أصلاً .

---

(٢) في منظور النقد البنيوي، د/ يوسف نور عوض ص٣١ ، ط/ مكتبة العلم، جدة ، وانظر: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، د/ فتح الله أحمد سليمان ص١٩ ، ط/ المطبعة الفنية بالقاهرة، ١٩٩٠م.

(٢) البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٢٦٨.

٢ – أن المصطلحات النقدية لا ينبغي أن تنبني على مقاربة الناقد للعمل الأدبي ، إنما تنبني على ملاحظة الظاهرة نفسها ، ومدى قيمتها الفنية أو الإبداعية .

على أنني أرى أن نضيف عبارة " وفق ما يقتضيه المقام أو السياق" إلى التعريف الأول ، حتى لا يكون الخروج لمجرد الخروج ، إنما يكون لداع أو مقْتض فني أو بلاغي .

وعليه يمكن أن نعرّف العدول بأنه : الخروج عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى ، أو عن أسلوب إلى أسلوب آخر ، لخصوصية يقتضيها المقام أو السياق .

## ثانيًا : العلاقة بين العدول والانحراف:

بعض النقاد والكتاب ينظر إلى الانحراف على أنه مرادف العدول ، وبعضهم ينظر إليه على أنه شيء آخر مختلف عن العدول ، مما يدعونا إلى تحديد مفهوم الانحراف أولاً .

### أ – الانحراف في اللغة :

يقال: حرف عن الشيء إذا مال وعدل عنه ، وحرف الشيء عن وجهه: صرفه وغيّره ، وانحرف إلى فلان: مال إليه ، وانحرف عنه: عدل وانصرف.

وحرّف الشيء : أماله ، وحرف الكلام : غيّره وصرفه عن معانيه ، والتحريف : تغيير الكلام عن معناه ، وعليه قوله تعالى – في وصف

اليهود- : ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[1] .

ومن معانيه – أيضًا – الميل والزيغ ، يقال : انحرف مزاجه : أي مال عن الاعتدال ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ " آمـنت بمحرف القلوب " ؛ أي: مميلها ومزيغها ، وقال بعضهم : محركها[2].

والمحارف (بالبناء للمفعول) : الذي لا يصيب خيرًا من وجه توجه له[3].

فالمادة تدور حول عدة معان ، أهمها :

١- الميل عن الشيء إلى غيره .

٢- التحريف والتبديل والزيغ .

وقد نظر بعض الكتاب إلى المعنى اللغوي الأول فجعل الانحراف مرادفًا للعدول ، وتحدث عن العدول باعتباره رصدًا لانحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف[4].

غير أن بعضهم تجاوز هذا المعنى ، فجعل من الانحراف وسيلة لكسر النظام ونقضه من أساسه ، مما جعل صنيعه وتناوله للانحراف أقرب إلى المعنى اللغوي الثاني منه إلى المعنى الأول[5] .

---

(1) النساء : جزء من الآية ٤٦ .

(٢) لسان العرب : مادة (حرف).

(٣) المصدر السابق : مادة (حرف) ، وانظر في معاني المادة : الصحاح للجوهري ، والتهذيب للأزهري ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز : مادة (حرف).

(٤) انظر: البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٢٦٨ وما بعدها.

(١) سيأتي تفصيل القول في ذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل ص ١٢٦ وما بعدها.

## ب- الانحراف اصطلاحًا :

يعرف بعض الكتاب الانحراف بأنه : كسر نظام الإمكانات اللغوية العادية، والقواعد المألوفة ، والخروج على سلبيتها ، بهدف زيادة عدد الدلالات الممكنة[1] .

ويعرفه بعضهم بأنه : الخروج على نحو معين عن القواعد والمعايير المثالية التي تحكم اللغة العادية[2] .

## لماذا آثرت مصطلح العدول ؟

لقد آثرت مصطلح العدول على مصطلح الانحراف للأسباب التالية :

١- أن مصطلح العدول ضارب بجذور عميقة راسخة في تراثنا البلاغي والنقدي - وهو ما يتناوله المبحث التالي - وليس الأمر كذلك مع مصطلح الانحراف .

٢- أن العدول مع كونه خروجًا من أسلوب إلى أسلوب ، وميلًا عن صيغة إلى أخرى ، وانصرافًا عن تركيب إلى آخر - فإن أصله اللغوي يحمل معنى الإقامة والتقويم ، وهو في الواقع التطبيقي انصراف عن وجه من الكلام أو القول إلى وجه آخر ، بقصد إقامة المعنى وجعله أكثر دقة وبلاغة في التعبير عن المراد .

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي، د/ صلاح فضل ص ٢٥١ ،٢٥٢، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م (مكتبة الأسرة – سلسلة الأعمال الفكرية).

(٢) نظرية اللغة في النقد الأدبي، د/ عبد الحكيم راضي، ص٢٠٦، نشر مكتبة الخانجي، سنة ١٩٨١م.

**٣- أن لفظ الانحراف يحمل في طياته معاني : الزيغ ، والتحريف ، والتبديل ، والخروج على طريق الجادة ، وهو ما قصد إليه بعض الحداثيين من الجري وراء مصطلح الانحراف وما يرادفه أو يقوم مقامه ، أو يتجاوزه في خرق سنن العربية من مصطلحات أخرى .**



# المبحث الثاني

# الجذور التراثية لمصطلح العدول

## أ- العدول عند ابن الأثير:

تحدث ابـن الأثير عن الالتفات على أنه ضرب من العدول ، وذكر لفظ العدول ومشتقاته ست مرات في هذا الباب وحده[1] .

وهو يرى أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية تقتضي ذلك ، وأنه ضرب من أشكل ضروب البيان ، وأدقها فهمًا ، وأغمضها مسلكًا ، لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها ، وفتش في دفائنها[2] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [3].

فقال أولًا : "خر من السماء" بلفظ الماضي ، ثم عطف عليه المستقبل الذي هو "فتخطفه" و"تهوي" ، وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل ؛ لاستحضاره صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به[4] .

---

(٢) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ق٢ ص ١٣٧ ، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦ ، ١٤٨.

(٣) المصدر السابق ق٢ ص١٤٥.

(٣) سورة الحج : جزء من الآية ٣١ .

(٤) المثل السائر ق ٢ ص ١٤٨.

فالفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ؛ لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي ؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلًا قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه[1].

ويتحدث ابن الأثير عن العدول في استخدام الألفاظ ، ويجعل المدار في ذلك على الذوق السليم ، يقول : " ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يُستفتَى في ذلك إلا الذوق السليم"[2] .

ومن ذلك كلمة " اللب " الذي هو العقل ، فإنها لا تحسن إلا مجموعة، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] .

وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافًا إليها ، أما كونها مضافًا إليها ، فكقولنا : إن في ذلك لعبرة لذي لبّ ، وعليه ورد قول جرير :

---

(1) المثل السائر ق2 ص١٤٥ ، ١٤٧ بتصرف.

(2) المصدر السابق ق١ ص ٢٩٧.

(3) سورة ص : جزء من الآية ٢٩.

(4) سورة الزمر : جزء من الآية ٢١.

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ    قَتَلنَنا ثُمَّ لَم يُحيِينَ قَتلانا
يَصرَعنَ ذا اللُب حَتّى لا حِراكَ بِهِ    وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللَهِ أَركانا

وأما كونها مضافة ، فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء : " ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم منكن يا معشر النساء "[1] .

وقد توسع ابن الأثير في مفهوم العدول ، فجعله يشمل الانتقال من صيغة إلى صيغة، ومن أسلوب إلى أسلوب، سواء أكان انتقالًا بين الضمائر ، كالعدول عن الخطاب إلى الغيبة ، أو عن الغيبة إلى التكلم ، ونحوه ، أم كان بين الأفعال كالعدول عن الماضي إلى المستقبل ، وعكس ذلك ، أم كان استبدال كلمة بأخرى ، أم كان تناوبًا بين حروف الجر ، أم إيثارًا لبنية على أخرى ، أو تركيب على آخر[2] .

ففي باب توكيد الضميرين ، في الحديث عن قوله تعالى على لسان السحرة : ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[3] ، يعلق ابن الأثير بقوله : إنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضمير "نكون" و "نحن" دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ، لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كانوا قالوا : إما أن تلقي وإما أن نلقي ، لتكون الجملتان متقابلتين ، فحيث قـالوا عـن أنفسهم : ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ استدل به على رغبتهم في الإلقاء قبله[4].

---

(1) المثل السائر ق ١ ص ٢٩٧.
(2) راجع: المصدر السابق ق ٢ ص ١٣٧– ١٤٨، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠.
(3) سورة الأعراف : الآية ١١٥.
(4) المثل السائر ق ٢ ص ١٥١ ، ١٥٢.

## ب – العدول عند الخطيب القزويني[1] :

يتناول الخطيب القزويني العدول على أنه خروج على الأصل لعلة أو مقتضٍ أو زيادة فائدة ، وقد تعرض له في مواضع متعددة في كتابه الإيضاح ، منها :

### ١- في وضع المظهر موضع المضمر :

يقول : وإن كان المظهر غير اسم إشارة فالعدول إليه عن المضمر إما لزيادة التمكين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[3] ، وإما لإدخال الروع في نفس السامع وتقوية المهابة عنده كقولهم: أمير المؤمنين يأمر بكذا، وإما للاستعطاف كقوله : إلهي عبدك العاصي أتاك[4]

### ٢- في باب الالتفات :

في الحديث عن قو له تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ

---

([1]) هو أبو عبد الله جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر ، يتصل نسبه إلى أبي دلف العجلي ، وقد تولى القضاء بمصر والشام ، وكان مقربا من السلطان الناصر بن قلاوون ، له مؤلفات عديدة ، من أهمها : كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، وكانت وفاته سنة ٧٣٩هـ. انظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، للشيخ/ أحمد مصطفى المراغي ص ١٣٤، ط/ مصطفى الحلبي ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

([2]) سورة الإخلاص : الآيتان ١ – ٢ .

([3]) سورة الإسراء : جزء من الآية ١٠٥.

([4]) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني ص ١٠٢ ، تحقيق: د/ عبد القادر حسين ، نشر مكتبة الآداب، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1].

يقول : لم يقل الحق (سبحانه) : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريق الالتفات ، فقال: " واستغفر لهم الرسول" تفخيمًا لشأن رسول الله ﷺ، وتعظيمًا لاستغفاره ، وتنبيهًا على أن شفاعة من اسمه "الرسول" من الله بمكان[2] .

### ٣- في أغراض تقديم المسند إليه :

يقول : وأما تقديمه فلكون ذكره أهم ، إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع ، وإما لتعجيل المسرة أو المساءة ، لكونه صالحًا للتفاؤل أو التطير ، نحو : سعدك في دارك ، والسفاح في دار صديقك[3] ، فتقديم المسند إليه هو الأصل ، ولا يعدل عنه إلا لمقتضٍ .

## ج - العدول عند العلوي[4]:

اقتفى العلوي في كتابه الطراز أثر ابن الأثير في فهمه وتناوله للعدول، وفي أكثر شواهده أو تطبيقاته عليه ، ذلك أن المثل السائر لابن الأثير يعد

---

(1) سورة النساء : جزء من الآية ٦٤.

(2) الإيضاح للخطيب القزويني ص ١٠٦.

(3) المصدر السابق ص ٨٤.

(4) هو يحيى بن حمزة بن علي إبراهيم العلوي اليمني ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ ، ومن أهم مصنفاته: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، وله مصنفات أخرى ، منها : الحاصر لفوائد مقدمة ابن طاهر، والانتصار على علماء الأمصار في تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل الأمة. انظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، للشيخ/ أحمد مصطفى المراغي.

أحد أهم المصادر التي اعتمد عليها العلوي ، ونقل عنها في طرازه[1] .

فالالتفات عند العلوي لون من ألوان العدول ، وصورة من صوره ، إذ يعرفه بأنه: " العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول "[2].

ويقول : وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة ؛ لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها ، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير ، ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع ، وقد يكون عكس ذلك[3] .

وفي مجال التطبيق لا يقف العلوي في فهمه للعدول عند باب الالتفات ، إنما يجعله شاملًا لكل انحراف أو خروج على القاعدة أو الأصل ، سواء أكان ذلك متعلقًا بالألفاظ أم بالأساليب والتراكيب ، فتحدث عن العدول من صيغة إلى صيغة بإيثار كلمة على أخرى ، وعن العدول في الإعراب من وجه إلى وجه ، والعدول عن استخدام حرف من الحروف إلى استخدام حرف آخر، وهو ما يعرف بالتناوب أو تناوب حروف الجر ، والعدول في مباحث التقديم والتأخير، والذكر والحذف ، والفصل والوصل،

---

(1) اعتمد العلوي في كتابه الطراز على أربعة مصادر، هي : المثل السائر لابن الأثير ، والتبيان لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، والنهاية لابن الخطيب الرازي ، والمصباح لبدر الدين بن مالك، انظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للشيخ / أحمد مصطفى المراغي ص ١٣٨.

(2) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز ليحيى بن حمزة العلوي ص ٢٦٥، مراجعة وتقديم: محمد عبد السلام شاهين، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(3) المصدر السابق ص ٢٦٥.

وغير ذلك من المباحث ، في مواضع كثيرة ، نذكر منها :

**١- في اختيار الألفاظ :**

في الحديث عن قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] .

يقول : جاء لفظ "الأعلى" على وزن أفعل ، ولم يقل : العالي ، لأن مجيئها على جهة الزيادة في تلك الخصلة للمبالغة ، وعدل إلى لفظ "الأعلى" لما فيه من الدلالة على الغلبة بالفوقية لا بالمساواة[2].

**٢- في مجال الإعراب :**

في الحديث عن قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[3].

يقول : قال الحق سبحانه :" فتصبحُ " بالرفع ، وعدل به عن القياس المطرد وهو النصب ؛ لأننا نقول : النصب إنما يكون إذا كان الأول سببًا للثاني ، كقولك : أتقوم فأقوم ، وهنا ليست الرؤية سببًا في كون الأرض تصبح مخضرة ، فلهذا وجب رفعه للدلالة على أنها تكون مخضرة عقيب الإنزال للماء من غير إشارة إلى السببية[4].

وهذا المعنى يؤكده علماء التفسير ، يقول الألوسي في تفسيره لهذه

(١) طه : الآيتان ٦٧ – ٦٨.
(٢) الطراز للعلوي ص ٢٧٢.
(٣) سورة الحج : جزء من الآية ٦٣.
(٤) الطراز للعلوي ص ٢٦٨.

الآية : ولم ينصب الفعل في جواب الاستفهام هنا في شيء من القراءات ، وصرح غير واحد بامتناعه[1].

### ٣- في ذكر ما يتعلق بالأحرف الجارة :

في الحديث عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2].

يقول : وعدل عن اللام إلى حرف الوعاء في الأصناف الأربعة الأُخر، إيذانًا بأن أقدامهم أرسخ في الاستحقاق للصدقة ، وأعظم في الافتقار ، من حيث كانت (في) دالة على الوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء [3] .

وهو ما يذهب إليه أهل التفسير – أيضًا – ، يقول الألوسي : والعدول عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة على ما قال الزمخشري للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق الصدقة ممن سبق[4].

### ٤- في بيان خصائص المسند إليه والمسند:

وقد تعرض العلوي للحديث عن العدول في هذا المبحث ثلاث مرات:

الأولى : في الحديث عن تعريف المسند إليه بالإضمار .

---

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي، ج ١٧ ص ١٩١.

(2) سورة التوبة : جزء من الآية ٦٠ .

(3) الطراز للعلوي ص ٢٢٨ ، وقد تأثر العلوي هنا بابن الأثير ونقل أكثر عباراته وتعليقاته على هذه الآية. راجع: المثل السائر لابن الأثير ق ٢ ص١٩٠.

(4) روح المعاني للألوسي ج ١٠ ص ١٢٤.

يقول : أما تعريفه بالإضمار ، فمن أجل الحاجة إلى التكلم ، أو من أجل الحاجة إلى الخطاب ، وأصل الخطاب أن يكون واردًا على جهة التعيين ، كقوله تعالى : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وقد يعدل به إلى غير ذلك ليعم كل مخاطب ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[3].

فيحتمل أن يكون الخطاب للرسول ﷺ وهذا هو الأصل ، ويحتمل أن يكون على جهة العموم من غير تعيين ، ويكون المعنى أن حال أصحاب الفيل وحال المجرمين قد بلغا مبلغًا عظيمًا في الظهور ، بحيث لا يختص به مخاطب ، لبلوغهما في الانكشاف كل غاية[4] .

الثانية : عند الحديث عن تقديمه .

يقول : وتقديمه إما لأنه هو الأصل ولم يعرض ما يقتضي العدول عنه ، وإما لأنه استفهام فيستحق التصدير ، وإما لأن في تقديمه تشويقًا للسامع إلى ما يكون بعده من الخبر ، كقولك : الأمير قادم[5] .

الثالثة : في الحديث عن كون المسند اسمًا.

---

(1) سورة المائدة : جزء من الآية ١١٦.

(2) سورة الفيل : الآية ١.

(3) سورة السجدة : الآية ١٢.

(4) الطراز للعلوي ص ٥٢١.

(5) المصدر السابق ص ٥٢٥.

**يقول : وكون المسند اسمًا هو الأصل ، وإنما يعدل إلى غيره لقرينة ، نحو : زيد منطلق ، وزيد أخوك ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] ، وإنما كان اسمًا؛ لأنه يفيد الاستمرار على تلك الصفة من غير تجدد ، بخلاف ما لو كان فعلًا فإنه يدل على خلاف ذلك[3] .**

## د – العدول عند شراح التلخيص وغيرهم من البلاغيين :

**أشار كثير من المصادر البلاغية إلى مفهوم العدول باعتباره خروجًا على الأصل أو القاعدة لخصوصية أو مقتض ، وهو ما نجده في مختصر سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ) على تلخيص المفتاح[4] ، وفي مطوله على تلخيص المفتاح أيضًا[5] ، وفي كتاب مواهب الفتاح في شروح تلخيص المفتاح لأبي يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ)[6] ، وفي حاشية الدسوقي (ت١٢٣٠هـ) على مختصر السعد[7] ، وفي بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال**

---

(1) سورة الشورى : جزء من الآية ١٥.

(2) سورة الرعد : جزء من الآية ١٦.

(3) الطراز للعلوي ص ٥٢٨.

(4) انظر : مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) ج ١ ص٣٩١، ط دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

(5) انظر : المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني ص ١٠٦ ، ١٠٧، ط/ مطبعة أحمد كامل، سنة ١٣٣٠هـ.

(6) انظر : مواهب الفتاح في شروح تلخيص المفتاح لأبي يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) التلخيص) ج١ ص ٣٩١، الطبعة السابقة.

(7) انظر : حاشية الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص) ج١ ص ٣٩١، ط/ دار

الصعيدي[1] ، وغير ذلك من المصادر .

يقول الدسوقي في الحديث عن الالتفات في قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [2] : عبّر الحق سبحانه وتعالى في قوله : "عبس وتولى" بالغيبة دون الخطاب على خلاف مقتضى ظاهر المقام ، والسر في العدول عن الخطاب إلى الغيبة هنا هو تعظيم النبي ﷺ، لما فيه من التلطف في مقام العتاب بالعدول عن المواجهة في الخطاب[3] .

وفي هذا كله ما يؤكد أن مفهوم العدول – على أنه خروج على الأصل لفائدة أو لخصوصية – ضارب بجذوره في تراثنا البلاغي والنقدي ، وأن أدباءنا القدماء كانوا على وعي كبير بهذا المفهوم سواء في تقنينهم للقواعد وإرسائهم للمفاهيم ، أم في مجال تطبيقاتهم الأدبية والبلاغية ودراساتهم حول إعجاز القرآن الكريم .

★★★

---

السرور، بيروت، بدون تاريخ.

(1) انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ / عبد المتعال الصعيدي ج١ ص١١٩، ١٤٩، ١٥٨، ط/ المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.

(2) سورة عبس : الآيات ١ – ٣.

(3) انظر: حاشية الدسوقي على مختصر السعد ص ٤٦٥.

# المبحث الثالث

# العدول عند المحدثين

آثر بعض النقاد والكتاب المحدثين والمعاصرين مصطلح "العدول" على مصطلح "الانحراف"، وآثر بعضهم عكس ذلك، ولكل وجهته ومنطلقه.

## الفريق الأول :

وأما الفريق الأول وعلى رأسه د/ محمد عبد المطلب، فقد آثر مصطلح "العدول" على مصطلح " الانحراف " .

وهذا الفريق ينطلق في كتاباته من خلال رؤية تحترم التراث وتقدره ، وترى فيه منطلقًا قويًا نحو الحاضر والمستقبل ، وما يمكن أن يؤسس لنظرية نقدية عربية لا تنقطع عن ماضيها ، ولا تنعزل عن حاضرها .

### أ – محمد عبد المطلب و" العدول " :

ينطلق محمد عبد المطلب في دراسته للعدول من خلال مباحث علم المعاني ، فيرى أن هذه المباحث تدور في كثير من جوانبها حول العدول عن النمط المألوف على حسب مفهوم أهل اللغة وتقاليدهم في صناعة الكلام ، وأن هذا العدول يمثل الطاقة الإيحائية في الأسلوب[1] .

فإذا كان النحاة يهتمون بمسألة الرتبة باعتبارها ممثلة لمثالية الأداء

(1) البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص ٢٧٠.

في التركيب المألوف – فإن البلاغيين لا يهتمون في مباحثهم بهذه الرتب إلا بالمقدار الذي يساعد على تحديد كمية العدول وكيفيته[1] .

وجاءت مقاربة عبد المطلب التطبيقية لمصطلح العدول من خلال تناوله لعدة موضوعات ، منها :

## ١ – التقديم والتأخير :

يقول : إن مباحث التقديم والتأخير تمثل في علم المعاني أهمية خاصة من خلال التركيب الذي يخضع بالضرورة لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة ، من حيث كان العدول عن هذا النمط بمثابة منبهات فنية يعمد إليها المبدع ليخلق صورة فنية متميزة[2] ، فتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [3] يفيد أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه وحده دون سواه ، وتقديم الحال في مثل قولهم : " جاء ضاحكًا زيد " يفيد مجيئه على هذه الصفة مختصًّا بها دون سواها من سائر صفاته[4] .

## ٢ – الإيجاز والإطناب :

يقول : ومن مباحث علم المعاني التي اعتبر عدولها عن النمط المألوف أساس ما فيها من قيمة بلاغية مبحث الإيجاز والإطناب ، من حيث

---

(1) البلاغة والأسلوبية ص ٢٧٢.

(2) المرجع السابق ص ٢٧١ ، ٢٧٢.

(3) سورة الشورى : جزء من الآية ٥٣.

(4) البلاغة والأسلوبية ص ٢٧٣.

كانا ممثلين لعدول عن أصل مفترض هو المساواة[1] .

فالعدول عن المساواة إلى الإيجاز أو الإطناب إنما يكون لفائدة يقتضيها المقام ، فمثلًا زيادة " لك " في قول الخضر لموسى (عليه السلام) في الكرّة الثانية : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [2] بعد قوله له في الكرّة الأولى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [3] إنما كان لاقتضاء المقام مزيدًا من التقرير ، فما يصفه بعض اللغويين بالزيادة ، يمكن أن نجد له – عند تحليل الجملة – أثرًا دلاليًّا بالغًا يضيع تمامًا مع سقوط هذه الزيادة من الكلام[4] .

٣ – الالتفات :

يعد الالتفات واحدًا من أهم المباحث البلاغية التي قارب النقاد القدماء والمحدثون من خلالها عملية العدول ، وقد سار محمد عبد المطلب في هذا المضمار ، يقول : من خلال مبحث المطابقة الذي أقامه النحاة واللغويون يظهر " الالتفات " كخاصية تعبيرية تتميز بطاقتها الإيحائية ، من حيث كان بناؤه يعتمد على العدول[5] .

ويمثل الالتفات خاصية بارزة في حركة الصياغة ، حيث تتحور اللفظة

---

(١) البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص ٢٧٥.

(٢) سورة الكهف : جزء من الآية ٧٥.

(٣) سورة الكهف : جزء من الآية ٧٢.

(٤) راجع : جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي ص ٢٧١ – ٢٧٣.

(٥) البلاغة والأسلوبية ص ٢٧٦.

في موضعها تحورًا غير مألوف يفرز دلالة فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي ، وفيها كثير من إمكانات المبدع في استعمال الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة[1] .

ويعلق عبد المطلب على تناول السكاكي للالتفات في مباحث المعاني ، فيقول : وتبدو براعة السكاكي في نقله لمبحث الالتفات من البديع إلى المعاني لاشتماله على خاصية في التركيب يراعى بها مقتضى الحال ، كما تتمثل براعته – أيضًا – في إدراكه لعملية العدول ، وتوسيع دائرتها فيما مثل به من قول امرئ القيس[2] :

| | |
|---|---|
| تَطـاوَلَ لَيلُكَ بِالأَثمد | وَنامَ الخَلِيُّ وَلَـم تَرقُـدِ |
| وَبـاتَ وَباتَت لَهُ لَيلَةٌ | كَلَيلَةِ ذي العـائِرِ الأَرمَدِ[3] |
| وَذَلِكَ مِـن نَبَأٍ جاءَني | وَخُبِّرتُهُ عَن أَبي الأَسودِ |

فظاهر الحديث كان يقتضي البدء بلسان المتكلم ، فالعدول هنا ليس بالنسبة لكلام سابق ، وإنما بالنسبة للأصل الذي يجب أن يكون عليه الكلام ، وبهذا يدخل التجريد في مجال الالتفات[4] .

---

(1) جدلية الإفراد والتركيب ص ١٨٨.

(2) البلاغة والأسلوبية ص ٢٧٨ ، وانظر : جدلية الإفراد والتركيب ص ١٨٨ ، ومفتاح العلوم للسكاكي ص ١١٣، ط/ مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(3) العائر : قذى العين ، ويقال في عينه: عرار وعائر ؛ أي غمصة أو وسخ تتأذى العين منه.

(4) البلاغة الأسلوبية ص ٢٧٨.

## الفريق الثاني :

وأما الفريق الثاني فقد آثر مصطلح الانحراف على مصطلح العدول ، غير أن أصحاب هذا الاتجاه لا يتفقون في فهمهم للانحراف ، أو في غايتهم من استخدامه ، فمنهم من يجعله مرادفًا أو موازيًا للعدول مع شيء من التوسع في الخروج على النمط المثالي المألوف ، ومنهم من يحاول أن يتخذ من هذا المصطلح وسيلة لتدمير اللغة وتدمير القواعدية فيها ، والخروج على كل ما هو مقدس ، والقطيعة لكل ما هو تراثي .

فالانحراف عند عبد الحكيم راضي هو الخروج على نحو معين عن القواعد والمعايير المثالية التي تحكم اللغة العادية[1] ، فما يعده اللغويون من قبيل الضرورة أو الشذوذ يعده النقاد واحدًا من المصطلحات التي اقتحمت بقوة حيز الدراسات الأسلوبية الحديثة[2] .

فلغة الأدب توصف دائمًا بأنها منحرفة عن النمط العادي في صورته المثالية ، وينظر إلى هذا الانحراف على أنه الميزة أو الخاصة التي تمتاز بها اللغة الأدبية[3] .

على أن تعيين الأصل المثالي خطوة ضرورية لتعيين الانحراف عنه كمًّا وكيفًا ، وبالتالي يصبح في الإمكان الحكم على مدى فنية الأثر .

---

(1) نظرية اللغة في النقد الأدبي، د/ عبد الحكيم راضي ص ٢٠٦.

(2) المرجع السابق ص ٣٨٩.

(3) المرجع السابق ص ٤٦٤.

ويتنوع هذا الأصل المثالي ليشمل كثيرًا من المقولات النحوية ، والصرفية ، والدلالية في وضعها المثالي على امتداد العصور والمذاهب المختارة ، ليتشكل من كل إمكانيات الانحراف عن هذه المقولات جوهر النظرية العربية في اللغة الأدبية ، حيث التفسير على محمل فني لكل انحراف عن مثالية اللغة في مستواها العادي[1] .

فاللغة الشعرية التي يتكفل الشعراء بإيجادها تمكنهم ، ليس فقط من أن يقولوا بصورة مختلفة الأشياء التي يمكن أن تقال في اللغة العادية ، وإنما تمكنهم من أن يقولوا أيضًا ما لا يمكن قوله في هذه اللغة على الإطلاق[2].

لكنه في النهاية يحذر من الإسراف في استخدام هذا المصطلح ، وجعله يشمل كل تجاوز لمعطيات اللغة ، ويؤكد أن إباحة الانحراف على إطلاقه قد دفعت إلى مبالغات في التطبيق أفضت به عند بعض الكتاب إلى ضروب من التصنع والتعقيد والغموض واللغز ، وذلك انطلاقًا من رغبة اللاحق في تجاوز ما وقف عنده السابق .

ويلتقي د / صلاح فضل في تصوره للانحراف – إلى حد كبير – مع ما كتبه د / عبد الحكيم راضي في تصوره إياه ، فقد استهل فضل حديثه عن الانحراف والتضاد البنيوي بعبارة " فاليري " : إن الأسلوب هو في جوهره انحراف عن قاعدة ما ، وأكد أن كثيرًا من النقاد قد شاركوا " فاليري " في

---

(1) نظرية اللغة في النقد الأدبي ص ٢١٠.

(2) المرجع السابق ص ٥١٩.

هذا الرأي ، ودعوا إلى ضرورة أن يتعود الناقد أو الأديب على القاعدة أولًا، ليتمكن من اكتشاف الانحرافات المتفرعة عنها[1] .

ويقول : إن الإضافة المهمة التي تنجم عن المفهوم الحديث لعلم الأسلوب كانحراف عن القاعدة هي إقامة المستوى المقارن للقاعدة اللغوية ، حيث يتم بمواجهته إبراز الشكل المميز للأسلوب في النص المحلل[2] .

وإذا كانت اللغة الشعرية تتحدد في دراسات علم الأسلوب على أساس أنها ابتعاد عن القاعدة المألوفة وكسر لها ، وانحراف عن سلبيتها – فإن فن الشعر يركز على بحث وقياس درجات هذا الانحراف[3] .

ويجمع النقاد البنيويون على أن أهم العناصر الخاصة بالقول الجمالي هو أنه يكسر نظام الإمكانات اللغوية الذي يهدف إلى نقل المعاني العادية ، ويهدف هذا الكسر بالذات إلى زيادة عدد الدلالات الممكنة[4] .

ويقول – أيضًا – : لا يمكن إنكار حقيقة واضحة في هذا المجال ، وهي أن محاولة تصور الأسلوب كانحراف عن قاعدة خارجة عن النص ، وابتعاد متعمد من قبل المؤلف لتحقيق أغراض جمالية أمر مقبول للوهلة الأولى.

كما لا يمكن إنكار حقيقة أخرى ، وهي أن هذا التصور يساعد على

---

(1) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص ٢٠٨.

(2) المرجع السابق ص ٢٠٩.

(3) نظرية البنائية في النقد الأدبي، د/ صلاح فضل ص ٢٥٢.

(4) المرجع السابق ص ٢٥١.

شرح كثير من الظواهر اللافتة في النصوص الأدبية ، ولعل هذا يتضح بشكل خاص في الحالات التي يرتطم فيها المؤلف بجدار الاستعمال اللغوي العادي ويخرج عليه[1] .

غير أنه يعود فيرصد أهم المشكلات والمحاذير التي تترتب على الإسراف في استخدام هذا المصطلح ، وحصر الأسلوب في أنه انحراف عن الأصل ، يقول : وموجز الأمر في مشاكل التحديد الإجرائي للأسلوب كانحراف عن قاعدة يتمثل فيما يأتي[2] :

١- يترتب على هذه النظرة وجود نصوص بلا أسلوب ، وهي تلك النصوص التي لا تنحرف عن قاعدة ما .

٢- يصعب تحديد كل من القاعدة والانحراف بالدقة العلمية المنشودة .

٣- هناك انحرافات لا يترتب عليها تأثير أسلوبي ، كما أن هناك عناصر لغوية ذات أهمية أسلوبية دون أن تكون خروجًا على القواعد المعتد بها .

٤- لعل أخطر ما يترتب على تطبيق هذه النظرية في تفسير النصوص الأدبية هو الاعتداد بالملامح الأسلوبية القليلة المميزة غير المستعملة عادة ، وإهمال بقية ملامح النص الدالة وبنيته الأساسية .

ونخلص من هذا بأن د/ صلاح فضل يريد الإفادة من تفجير الإمكانات الدلالية المترتبة على رصد الانحراف وبيان قيمته الفنية ، دون أن نسرف أو

---

(1) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص ٢١٢.

(2) المرجع السابق ص ٢١٥ ، ٢١٦.

نبالغ في التطبيق ، أو أن نحصر الأسلوب في أنه انحراف عن القاعدة أو الأصل ، مما يترتب عليه إهمال العناصر الفنية الأخرى .

غير أن بعض الحداثيين قد نحا بالانحراف منحى آخر يعمد إلى الثورة على القديم ، والقطيعة مع التراث ، ويرمي من ورائه إلى الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى الجديد ، سعيًا متفلتًا من كل الضوابط والقيم ، سعيًا يعمل على هدم الماضي هدمًا مستمرًّا ومتتابعًا مع القلق والخوف من المستقبل ، في هجوم جنوني على الدين واللغة والتراث ، وثورة على الحياة وعلى سنن الله الثابتة في الكون[1] .

ومن ثمة لم تقف دعوة بعضهم عند الانحراف في اللغة من المثالي إلى المنحرف ، إنما دعوا إلى تدمير اللغة ونقض قواعدها جملة وتفصيلًا ، يقول كمال أبو ديب : تكون الحداثة – بين ما تكونه – تدميرًا للغة من الداخل ، تدميرًا للقواعدية فيها ، ومحاولة لإعادتها إلى بناها اللاقاعدية ، اللامتشكلة ، ويتم ذلك في الحداثة عن طريق تدمير بنية الجملة الدالة بما هي نسق واضح من القواعد المنفذة ، وتحويل الجملة إلى سلسلة من الإمكانات والتداخلات[2] .

ويقول في موضع آخر : الحداثة انقطاع معرفي ، ذلك أن مصادرها

---

(1) انظر: الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، د/ عدنان رضا النحوي ص٢٩، ط/ دار النحوي للنشر والتوزيع بالرياض، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(2) انظر: جناية الحداثة المعاصرة على اللغة العربية، د/ وليد قصاب إبراهيم، ص ٢١٢، ٢١٣، (بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي)، العدد التاسع، سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث ، أو في اللغة المؤسساتية ، والفكر الديني ، وكون الله مركز الكون .. الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر ، والفكر العلماني ، وكون الإنسان مركز الوجود[1] .

ولا يفتأ بعض الحداثيين يردد كلمات التدمير ، التخريب ، نسف القواعد اللغوية ، وغير ذلك مما ينطوي على حقد أسود على هذه اللغة[2].

ويستخدم بعضهم مصطلح الانحراف ، وهم يرمون من ورائه إلى التمرد على التراث ، والثورة على المرجعية اللغوية ، والخروج على سنن العربية ، وتفننوا في الأسماء والمصطلحات بما يوهم أنهم نقاد مبدعون ، أو أنهم أتوا بما لم يأت به الأولون ، مما أدى إلى فوضى المصطلح النقدي الحديث .

## الانحراف وفوضى المصطلح النقدي الحديث :

الانحراف أحد المصطلحات التي تدل مقاربتها النقدية عند بعض الكتاب المحدثين على مدى الارتباك والفوضى في استخدام بعض المصطلحات النقدية الحديثة ، فمن جهة لم يتفق النقاد على تحديد علمي لمفهوم الانحراف ، ومن جهة أخرى رأينا سيلًا من المصطلحات التي تستخدم كبديل أو مرادف لمصطلح الانحراف ، منها : الانزياح[3] ، التخطي ، التحول ، الخروج ، التجاوز ، المخالفة ، المغايرة ، الاختلال ،

---

(1) انظر: تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها، د/ عدنان رضا النحوي ص ٣١، نشر دار النحوي بالرياض، سنة ١٤١٤هـ/١٩٨٤م.

(2) انظر: جناية الحداثة المعاصرة على اللغة العربية ، د/ وليد قصاب ص ٢١١.

(3) يقسمه بعض النقاد إلى انزياح سكوني ، وهو الانحراف عن اللغة العادية ، وانزياح حيوي أو دينامي ، وهو الانحراف عن مستوى التقاليد الأدبية.

الإطاحة ، اللحن ، التحريف ، العصيان ، الشناعة ، الانتهاك ، خرق السنن[1] .

ولا شك أن كثيرًا من هذه المصطلحات يحمل معاني الهدم والتمرد ، وقد صار لهذا الاتجاه مدرسة لها أدباؤها وأنصارها ، من أمثال : يوسف الخال ، وأنسي الحاج ، ومحمد الماغوط ، وتوفيق صايغ ، وأدونيس ، وجبرا إبراهيم جبرا ، وعبد الرحمن منيف ، وخالدة سعيد، وغيرهم .

وأغلب أعضاء مجلة شعر اللبنانية ينتمون إلى هذا الاتجاه ، وقد أطلق عليهم غالي شكري " أبناء مدرسة التجاوز والتخطي"، وأثنى على ثورتهم اللغوية والفكرية والموسيقية ، وعلى تحررهم وعدم تقيدهم أو التزامهم بأي ضابط تراثي، يقول: إن ثورة توفيق صايغ، وأنسي الحاج، ومحمد الماغوط، وجبرا إبراهيم جبرا – هي الخروج على هذا المطلق السرمدي ، إنها ثورة بلا حدود، فهي ليست تمردًا على البيت الواحد المكتفي بذاته، وإنما هي ثورة على القالبية في الفكر والتعبير، سواء أكانت هذه القالبية هي عمود الخليل أم التفعيلة الواحدة[2] .

وإني لأشعر بسباق بين بعض الكتاب والنقاد الحداثيين المعاصرين ، أيهم يكون أكثر هدمًا للتراث ، وتجاوزًا للماضي ، وتمردًا على المقدسات ،

---

([1]) راجع : الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د/ فتح الله أحمد سليمان ص ٤٤ ، والأسلوبية والأسلوب د/ عبد السلام المسدي ص ٩٦ ، ٩٧ ، ط/ الدار العربية للكتاب، تونس ، والبلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٢٦٨ ، وعلم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص ٢١٧ ، ونظرية اللغة في النقد الأدبي ، د/ عبد الحكيم راضي ص ٤٨٤.

([2]) الحداثة العربية حقيقتها وملامحها، د/ وليد قصاب، ص ٢٥١، (بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي)، العدد السابع، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م نقلا عن مجلة الناقد الصادرة في لندن، عدد يوليو، سنة ١٩٨٩م ص ٤٠.

وتنكرًا لتراثه ولغته وثقافته .

وما ذلك إلا لأن النيل من هذه الثوابت قد أصبح وسيلة أنصاف المثقفين - إن صح إطلاق ذلك عليهم - للظهور والشهرة ، أو الحصول على بعض الجوائز ، أو الألقاب ، أو المناصب الريادية ، أو التزلف لأصحابها والتقرب منهم على أقل تقدير .

ولكننا لم ولن نيأس ، وكلنا أمل ويقين في تحقق قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [1].

★★★

---

([1]) سورة الرعد : جزء من الآية ١٧.

# الفصل الرابع

## جدلية الحضور والغياب
## بين القدماء والمُحْدَثِين
## "دراسة أسلوبية نقدية"

# توطئة

# مفهوم المصطلح وتحديد عناصره

## أ – مفهوم علاقات الحضور :

هي تلك العلاقات التي تقوم بين العناصر الحاضرة في النص الأدبي ، وتنشأ عن ارتباط كل عنصر منهما بالآخر أو تطلبه له ، ويطلق عليها : العلاقات السياقية ، أو علاقات المجاورة[1] .

ومن خلال دراسة هذه العلاقات يمكن الوقوف على أثر كل كلمة أو جملة أو عبارة في بنية النص وسياقه ، ومدى تأثرها بظلال وإيحاءات هذا السياق ، فوضع كل كلمة أو صيغة أو بنية في موضعها حيث لا يصلح غيرها أو مرادفها هو عمود نظرية النظم عند القدماء[2] ، ومناط الدراسات الأسلوبية والسياقية عند المحدثين والمعاصرين[3] .

## ب – مفهوم علاقات الغياب :

هي تلك العلاقات التي تقوم بين العناصر الحاضرة والعناصر الغائبة في النص الأدبي ، وترتكز على علاقة كل عنصر في السياق بما يثيره من عناصر

---

(1) انظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ص٢٠٣.

(2) انظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي، ص٢٩، ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص٩٠-٩٢.

(3) انظر : علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص١٥ ، وفي معرفة النص : دراسات في النقد الأدبي، د/ حكمت صباغ الخطيب، يمنى العيد) ص٣٢ ، ٣٣ ، ودلالة السياق، د/ ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي ص٦٢٩.

مخالفة له تم اختياره دونها ، ويطلق عليها : العلاقات الإيحائية ، أو العلاقات الاستبدالية ، أو علاقات المخالفة[1] .

ويساعد تصور هذه العلاقات واستحضارها على ردم الفجوة بين الحاضر والغائب ، بين المتجلي والخفي ، بين المذكور والمسكوت عنه ، وفق تعبيرات الحداثيين المتعددة[2] .

## ج – جدلية العلاقة بين الحضور والغياب :

أصل الجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وقيل : الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان على الجدالة[3] .

وقد استعمل لفظ (الجدل) على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم[4] .

فأصل الجدل قائم على الصراع ومحاولة الإقصاء ، وجدلية الحضور

---

(1) انظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ص٢٠٣ ، ٢٠٤.

(2) لا شك أن إسراف بعض الكتّاب الحداثيين في إطلاق المصطلحات النقدية قد أدى إلى خلخلة كثير من هذه المصطلحات وعدم ثباتها أو استقرارها ، وقد عبر بعض النقاد عن هذه الحقيقة بأوصاف ، مثل : فوضى المصطلح ، أزمة المصطلح ، مشكلة المصطلح ، مما يشكل أحد جوانب أزمة النقد الأدبي العربي المعاصر. راجع في ذلك : المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق ، لمديحة جابر السايح ص٤٢٠ ، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ، الطبعة الأولى، إصدار يونيو، سنة ٢٠٠٣م.

(3) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص٩٧ مادة (جدل) ، تحقيق محمد خليل عيتاني، ط/ دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

(4) المصباح المنير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، مادة (جدل) ج ١ ص١٢٨ ، ط/ المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٢م.

والغياب في النقد الأدبي تعني ذلك الصراع القائم في نفس المبدع أو المتلقي أو الناقد بين العناصر الحاضرة والعناصر الغائبة في النص الأدبي .

على أن هذا الصراع لا ينتهي بالضرورة إلى غلبة عنصر وإزاحة آخر ، فكما أنه قد يؤدي إلى الإقصاء والإحلال ، فإنه – أيضًا – قد يؤدي إلى التمازج والتداخل وإشراب الحاضر معنى الغائب أو روحه .



# المبحث الأول

## نظرة النقاد القدماء إلى علاقات الحضور والغياب

كان نقادنا القدماء على وعي كبير بمفهوم كثير من المصطلحات النقدية الحديثة ، وإن لم يخوضوا في تعريفها ، أو يقفوا عند تحديدها ذلك التحديد العلمي الدقيق الذي اقتضته طبيعة الدراسات النقدية الحديثة وسُنّة التطور العلمي .

فعلاقات الحضور والغياب كانت ماثلة بوضوح في أذهانهم ، وقد أفادوا منها في كثير من تطبيقاتهم النقدية ، وهو ما يؤكده أحد النقاد المعاصرين بقوله : طبيعة الحضور والغياب لبعض عناصر التراكيب تمثل لونًا تعبيريًّا بارزًا أفاد منه القدماء في تحليل كثير من النماذج الأدبية لاستخلاص ما فيها من ألوان الجمال ، أو رصد ما فيها من مظاهر الركاكة والضعف ، وبمعنى آخر : كانت هذه الخاصية من أهم مظاهر تقييم العمل الأدبي عندهم[1] .

وتبدو مقدرة القدماء في إدراكهم أن بعض العناصر اللغوية يبرز دورها الأسلوبي بغيابها أكثر من حضورها ، وكانت مباحث الحذف والذكر هي وسيلتهم لإبراز هذا الدور[2] .

---

(1) انظر : جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، للدكتور/ محمد عبد المطلب ص١٨١.

(2) انظر : المرجع السابق ص١٨١ ، ١٨٢.

## أ – علاقـات الحضـور:

نظر كثير من نقادنا القدماء بعين الاعتبار إلى العلاقات السياقية القائمة علـى الترابـط والتماسـك بـين عناصـر الـنص ، ووضـع كـل عنصـر منهـا في موضعه ، مع تخيّر الصيغة أو البنية التي يتطلبها السياق دون سواها ، وهو ما يعرف عند بعض النقاد المحدثين بعلاقات الحضور .

فالقاضي الجرجاني يرى أن أقل النـاس حظًّا في صناعة البيان مـن اقتصــر – في اختيــاره ونفيــه ، واســتجادته واستحســانه ، أو استســقاطه واستقباحه – على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة .. ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب ، واضطراب الـوزن ، وسـوء التـأليف ، وهلهلـة النسـج ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يسبر ما بينهما من نسب ، ولا ما يجتمعان فيه من سبب[1] .

ويرى الخطابي أن عمـود البلاغـة إنمـا يقـوم علـى وضـع كـل لفـظ في موضـعه الأخـص الأشـكل بـه ، الـذي إذا أبـدل مكانـه غـيره جـاء منـه : إمـا تبـدل المعنـى الـذي يكـون منـه فسـاد الكـلام ، وإمـا ذهـاب الرونـق الـذي يكون معه سقوط البلاغة[2] .

وأما رسوم النظم – عنـده – فالحاجـة إلى الثقافـة والحـذق فيهـا أكثـر ؛ لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبالوقوف علـى أسـرار النظـم ودقائقـه ،

(1) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي الجرجاني ص٤١٣ .

(2) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٢٩ .

ومراعاة ما يتطلبه تقديمًا أو تأخيرًا ، وحذفًا أو ذكرًا - " تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"[1] .

وقد نظر كثير من نقادنا القدماء نظرة تقدير إلى وصية بشر بن المعتمر وما تطلبه فيها من ضرورة أن تكون اللفظة قارة في مكانها ، مضمومة إلى لفقها ، ساكنة إلى جارتها ، غير قلقة في موضعها[2] ، فإن كانت " اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تتصل بسلكها ، وكانت قلقة في موضعها ، نافرة عن مكانها - فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها "[3] .

يؤكد أبو هلال العسكري على تلك المعاني التي ساقها بشر في وصيته ، وينسخ بعض عباراته المتصلة بالنظم ومراعاة السياق ، فيقول : "وينبغي أن تجعل كلامك مشتبهًا أوله بآخره ، ومطابقًا هاديه لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطراره[4] ، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها ، فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام ، ولا يكون ما بين ذلك حشو يُستغنى عنه ، ويتم الكلام دونه "[5] .

---

(1) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٣٦.

(2) انظر : البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص١٣٨، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٥٢ ، ١٥٣، تحقيق: د/ مفيد قميحة ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، والعمدة لابن رشيق ج ١ ص٢١٣.

(3) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٥٢ ، ١٥٣.

(4) أطراره : أطرافه.

(5) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٦٠.

ولبيان وجهة نظره وشرح فكرته ساق أبو هلال كثيرًا من الأمثلة ، نذكر منها :

١ - قوله : أخبرني أبو أحمد ، قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرك نتعلم منه علم الشعر ، فقال لنا يومًا :إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال : أجيزوا هذا البيت :

ألا إنما الدنيا متاع غرور

فأجازه كل واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه ، فقلت :

ألا إنما الدنيا متاع غرور        وإن عظمت في أنفس وصدور

فقال : هذا هو الجيد المختار[1] .

٢ - قوله : أخبرنا أبو أحمد الشطي ، قال : حدثنا أبو العباس بن عربي ، قال : حدثنا حماد عن يزيد بن جبلة ، قال : دفن مسلمة رجلاً من أهله ، وقال :

نروح ونغدو كلَّ يوم وليلة

ثم قال لأحدهم : أجز ، فقال :

فحتى متى هذا الرواح مع الغدو؟

فقال له مسلمة : لم تصنع شيئًا ، فقال آخر :

فيا لك مغدى مرة ورواحا!

---

([1]) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٦٠ ، ١٦١.

فقال له – أيضًا – : لم تصنع شيئًا ، ثم قال لآخر : أجز ، فقال :

وعما قليـــل لا نـروح ولا نغـدو

فقال مسلمة : الآن تم البيت[1] .

وذلك لأن المعنى وقع من النفس موقع العظة بما أفاده التقابل بين حالي الحركة والسكون ، حال الحركة والنشاط حيث الرواح والغدو كل يوم وكل ليلة ، وحال السكون الذي يصير فيه الإنسان جثة هامدة لا حراك لها ، ولا تقوى على شيء ، وقد حذف الشاعر متعلق الغدو والرواح في الشطر الأول للدلالة على سعة الحركة وانتشارها ، ولتذهب النفس في تفسيره كل مذهب ، فكل وما يناسبه من غدو ورواح كمًّا وكيفًا .

٣ – قوله : ومما لم يوضع الشيء فيه مع لفقه من أشعار المتقدمين قول السموءل بن عادياء:

فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا

كَهامٌ وَلا فينا يُعدُّ بَخيلُ[2]

إذ ليس قوله : " ما في نِصابِنا كَهامٌ " من قوله : " فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ " في شيء ، فليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة ، ولو قال: ونحن ليوث الحرب أو أولو الصرامة والنجدة ما في نصابنا كهام لكان الكلام مستويًا ، أو نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف لكان جيدًا[3].

---

([1]) الصناعتين ص١٦١.

([2]) الكهام : الضعيف والجبان.

([3]) الصناعتين ص١٦٢.

ويختم أبو هلال حديثه عن نظم الكلام وما يجب في تأليفه بقوله : وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبًا صحيحًا ، فتقدم منها ما يحسن تقديمه ، وتؤخر ما يحسن تأخيره ، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر ما يكون التقديم به أليق[1] .

## الإمام عبد القاهر وعلاقات الحضور :

كان الإمام عبد القاهر واسطة العقد في قضية النظم ، وفي فهمه لعلاقات الذكر والحذف (الحضور والغياب) ، فعني عناية واضحة بالسياق ، والتئام الكلام ، وضم بعضه إلى بعض على نحو خاص .

فالنظم عنده لا يعني ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، فـ "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "[2] .

يقول : وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ومما يكد اللسان أبعد ؟

وهل تجد أحدًا يقول : هذه فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلا

(1) الصناعتين ص١٦٩.

(2) دلائل الإعجاز ص٩٥.

وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤداها ؟

وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] ، فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع -أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ فالفضل إنما تناتج مما بينها وحصل من مجموعها[2] .

والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدًّا كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني ، وفيه أفرغ المعنى وأجري ، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد – أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان[3] .

---

(1) سورة هود : الآية ٤٤.

(2) دلائل الإعجاز ص٩٠ ، ٩١.

(3) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص٣ ، تحقيق: هـ. ريتر ، نشر مكتبة المتنبي، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

فقد نظر عبد القاهر إلى النص على أنه كيان له بنيانه ، ولا بد من دراسة الروابط وعلاقات التأثر والتأثير بين لبناته ، وهو المرتكز الرئيس لنظرية السياق ، بل إن بعض الكُتّاب المحدثين يرى أن نظرية السياق الحديثة لا تضيف إلى ما قاله عبد القاهر إلا التفصيلات والربط بمفهوم التطور الدلالي كما ألفته المعاجم الحديثة[1] .

ويرى بعضهم أن النظم الذي ارتبط باسم عبد القاهر يجمع كل مفردات النسق الحداثي فيما يتصل بالدراسات الأسلوبية والسياقية الحديثة[2] .

## حازم القرطاجني وعلاقات الحضور :

يعد حازم القرطاجني من أبرز النقاد الذين جاءوا بعد عبد القاهر فاقتفوا أثره في العناية بنظم الكلام ، والتماسك النصي ، وفهم العلاقة بين عناصره الحاضرة وعناصره الغائبة ، مع مراعاة التناسب بين المفردات، وبين الجمل ، وبين أجزاء النص ، ووضع كل منها في موضعه[3]، فالعبارة – عنده – لا تسد مسد غيرها في حسن موقعها وإن كان مفهومهما واحدًا ؛ لأن إحداهما أليق بالموضع ، وأشد مناسبة لما وقع في جنبتي الكلام المكتنفتين له[4] .

---

(1) انظر : مقدمة دلائل الإعجاز ، لمحمد رضوان الداية ، وفايز الداية ص١٨.

(2) انظر : المرايا المقعرة ، للدكتور/ عبد العزيز حمودة ص٢٢٦.

(3) انظر : الأسلوبية ونظرية النص ، للدكتور/ إبراهيم خليل ص٥٤ وما بعدها ، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٩٦م.

(4) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني ص١٦ ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ، نشر دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٩٨٦م.

**والشاعر – عند حازم – لا يكمل له فنه إلا إذا توفرت له ثلاث قوى : قوة حافظة ، وقوة مائزة ، وقوة صانعة .**

**أما القوة الحافظة فهي أن تكون خيالات الفكر عند الأديب منتظمة، بحيث يصير كناظم الجوهر ، تكون عنده أنماط الجواهر مجزأة محفوظة المواضع ، فإذا أراد أي حجر شاء على أي مقدار شاء عمد إليه فوضعه في موضعه ، فإن كان الأديب معتكر الخيالات صار كناظم تكون جواهره مختلطة ، فإذا أراد حجرًا على صفة ما تعب في تفتيشه عنه ، وربما لم يقع على البغية ، فنظم في الموضع غير ما يليق به .**

**وأما القوة المائزة فهي التي يميز بها الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك .**

**وأما القوة الصانعة فهي التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض ، والتدرج من بعضها إلى بعض ، وبالجملة هي التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة[1] .**

**فهذه القوى الثلاث – التي يرى حازم أنه لا يكتمل لشاعر قول على الوجه المختار إلا بها – إنما تدور في جملتها حول وضع الشيء في موضعه الذي يليق به ، مع مراعاة التلاؤم والتلاحم بين أجزاء العمل الأدبي ، بحيث يصبح كيانًا أدبيًّا متماسكًا لا أجزاء مشتتة أو بنى متنافرة .**

---

(1) منهاج البلغاء ص٤٢ ، ٤٣.

بل إن حازمًا ليسبق الحداثيين الذين نادوا بمراعاة التطالب المعجمي والصرفي والإيقاعي ، يقول : " فمن حسن الوضع اللفظي أن يؤاخى في الكلام بين كلم تتماثل في مواد لفظها ، أو في صيغها ، أو في مقاطعها ، فتحسن بذلك ديباجة الكلام ، وربما دل بذلك في بعض المواضع أول الكلام على آخره "[1] .

ومن قبيح التأليف – عنده – أن تكون الألفاظ بعيدة أنحاء التطالب ، شتيتة النظم ، متخاذلاً بعضها عن بعض ، كقول الشاعر[2] :

لم يضرها والحمد لله شيء
فانثنت نحو عزْف نفس ذهول

أو لا يكون ثمة توافق أو تطالب بين المعاني ، كأن يأتي التفسير على غير وفق المعنى المفسر ، كقول أحدهم :

فيا أيها الحيران في ظلم الدُّجى
ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه
ضياء ومن كفيه بحرًا من الندى

فمقابلة عجز البيت الأول بعجز البيت الثاني غير صحيحة ، والتسامح في إيراد التفسير على مثل هذا مخل بوضع المعاني ، ومذهب لطلاوة

(1) منهاج البلغاء ص٢٢٤.
(2) المصدر السابق ص٢٢٤.

الكلام ، فينبغي أن يتحرز منه ، وألا يتسامح في مثله[1] .

وبناء على ما سبق يمكن أن نؤكد أن علاقات الحضور التي تقوم على مراعاة التناسب بين عناصر النص الحاضرة قد نالت حظًّا وافرًا من دراسات نقادنا القدماء ، وإن لم يسموها بهذا الاسم فقد تناولوها من خلال دراستهم للنظم وسياق الكلام ، والأسرار البلاغية للذكر والحذف والتقديم والتأخير .

## ب – قضية الغياب عند نقادنا القدماء:

نالت قضية الغياب اهتمام بعض نقادنا القدماء لدرجة لافتة للنظر ، سواء فيما يتعلق بأسرار الحذف (المسكوت عنه) ، أم ما يتعلق بالاختيار (الاستبدال الأفقي والرأسي) ، وفق تعبيرات بعض النقاد المحدثين والمعاصرين .

ويعد الإمام عبد القاهر أبرز النقاد القدماء الذين تحدثوا عن بلاغة الحذف في صورة أقرب ما تكون إلى معطيات النقد الحديث ، مهما كان بريق المصطلحات التي يطلقها بعض النقاد المحدثين ، كفقه المسكوت عنه ، أو الخفاء والتجلي ، أو علاقات الغياب ، أو غير ذلك .

يقول عبد القاهر في مستهل حديثه عن الحذف : هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق

---

(1) منهاج البلغاء ص٥٨ ، ٥٩.

ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن[1] .

فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها إلا كان حذفه هناك أحسن من ذكره ، وكان إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به[2] .

وساق عبد القاهر لذلك أمثلة عديدة ، نذكر منها :

**أ – قول البحتري :**

إِذا بَعُـــدَت أَبلَـــت وَإِن قَرُبَـــت شَـــفَت
فَهجرانُهـــا يُبلـــي وَلُقيانُهـــا يَشـــفي

فالمعنى : إذا بعدت عني أبلتني ، وإن قربت مني شفتني ، إلا أنك تجد الشعر يأبى ذلك ويوجب إطراحه ، وذلك لأنه أراد أن يجعل البلى كأنه واجب في بعادها أن يوجبه ويجلبه ، وكأنه كالطبيعة فيه ، وكذلك حال الشفاء والبرء من كل داء ، ولا سبيل إلى هذه اللطيفة إلا بحذف المفعول[3] .

**ب – قول البحتري :**

وَكَـــم ذُدتَ عَنّـــي مِـــن تَحامُـــل حـــادِثٍ
وَسَـــورة أَيّـــامٍ حَـــزَزنَ إِلى العَظـــمِ

---

(1) دلائل الإعجاز ص١٦٢.

(2) المصدر السابق ص١٦٨.

(3) المصدر السابق ص١٧٤.

الأصل لا محالة : " حززن اللحم إلى العظم " ، إلا أنه في مجيئه به محذوفًا ، وإسقاطه له من النطق ، وتركه في الضمير مزية عجيبة ، وفائدة جليلة ، وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعًا يمنعه من أن يتوهم في بدء الأمر شيئًا غير المراد ، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم لجاز أن يقع في وهم السامع – قبل أن يصل إلى قوله : " إلى العظم " – أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم ، وأسقطه من اللفظ ، ليبرئ السامع من هذا الوهم ، ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم ، ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم .

أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر ، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير ؟[1].

ثم جاء ضياء الدين بن الأثير فاقتفى أثر عبد القاهر في حديثه عن الحذف ، ونقل كثيرًا من كلامه وشواهده ، وبخاصة في حذف المفعول ، دون أن يشير إلى ذلك[2] .

غير أن ابن الأثير قد تفنن في ذكر ألوان الحذف ، وتوسع في

(1) دلائل الإعجاز ص١٨١.

(2) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ق٢ ص٢١٩ ، ص٢٣٩-٢٤١.

شواهده[1] ، وحاول دراسته في إطار سياق أعم وهو سياق الإيجاز ، فجعل الإيجاز قسمين : إيجازًا بالحذف ، وإيجازًا بغير حذف ، وهو ضربان : إيجاز بالتقدير ، وإيجاز بالقصر[2] .

وقد أثنى بعض النقاد المعاصرين على دراسة ابن الأثير للحذف في إطار سياق الإيجاز ، وعدّ ذلك محاولة جادة يمكن تنميتها في مجال البحث البلاغي الحديث ، وربطه بالدراسات الأسلوبية ، من حيث يصبح الكل له الأهمية الأولى أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء ، وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء أو توقف تأثيره في السياق[3] .

ثم جاء العلوي صاحب الطراز فتابع عبد القاهر وابن الأثير في أن الحذف إذا وقع في موضعه كان أبلغ وأفصح من الذكر ، بل ذهب إلى القول بأنه " لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته ، ولصار إلى شيء مسترك مسترذل ، ولكان مبطلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة "[4] .

وساق العلوي أمثلة كثيرة للإيجاز بحذف الجمل ، وحذف المفردات ، وحذف الحروف[5] .

---

([1]) راجع : المثل السائر ق٢ ص٢٠٩-٢٧٧.

([2]) انظر : المصدر السابق ق٢ ص٢١٦ وما بعدها.

([3]) البلاغة والأسلوبية ، لمحمد عبد المطلب ص٣٥٠.

([4]) الطراز للعلوي ص٢٤٦ ، ٢٤٧.

([5]) راجع : المصدر السابق ص٢٤٧ وما بعدها.

ومن أمثلة حذف الحروف عنده حذف الواو في ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ .. ﴾[1] .

لأن التقدير : وودوا ما عنتم ، وقد بدت البغضاء من أفواههم ، فلما حذفت هذه الواو كان الكلام مع حذفها أدخل في الإعجاز ، وأحسن في الاختصار والإيجاز ، وأبلغ في تأليفه ونظمه ، وأحلى في سياقه وعذوبة طعمه[2] .

## الفحص الاستبدالي (الاختيار) :

ويعني اختيار البدائل اللغوية الممكنة ، سواء أكان ذلك من جهة المبدع أم من جهة الناقد .

وهذه الفكرة محل انبهار كثير من الكُتّاب والنقاد الحداثيين ، ويرجع انبهارهم إلى كون هذا المصطلح أحد مفردات النقد الغربي أو الحضارة الغربية الوافدة ، وقد عزاه عبد الله الغدامي إلى الناقد الفرنسي "رولان بارت" ، يقول الغدامي : من أجل النفاذ إلى باطن النص لسبر حركة العلاقات فيه اقترح رولان بارت فكرة الفحص الاستبدالي ، وهو أن نقوم بتغيير الدال بإحلال بدائل عنه من سلسلة الاختيار ، لنرى أثر ذلك في توجه الجملة من حيث دلالتها ، أو من حيث إيقاعها .

---

(1) سورة آل عمران : جزء من الآية ١١٨.

(2) الطراز للعلوي ص٢٥٥.

وحركة الاستبدال تمس البنية كلها ، فتغيير إحدى الكلمات ينجم عنه تغيير وظائف الأخريات[1] .

لكن ناقدًا منصفًا هو د/ عبد العزيز حمودة يرد الأمر إلى نصابه ، فيؤكد أن القول بأن اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة من العلاقات التتابعية والاستبدالية أمر عرفه العقل العربي ، وقتله بحثًا وجدلاً لما يقرب من خمسة قرون على الأقل[2] .

والقارئ لدلائل الإعجاز سيدهشه عدد المواضع التي يتطرق عبد القاهر فيها إلى النظم ، وحيث يكون الحديث عن النظم يكون – أيضًا – عن العلاقة الأفقية والعلاقة الرأسية ، وإن كان عبد القاهر لم يستخدم هذه المصطلحات الحديثة ، فالمصطلح المتكرر في وصف العلاقات الأفقية هو (الجوار) أحيانًا و(الضم) أحيانًا أخرى ، أما المحور الرأسي (الاستبدال) فالمصطلح الشائع بين البلاغيين العرب هو (الاختيار) ، وهو يؤدي المعنى الحديث بالكامل[3] .

وقد أشار كثير من نقادنا القدماء إلى قضية الاستبدال (الاختيار) ، منهم الخطابي الذي تحدث عن ذلك بوضوح ، يقول : " فيتوصلوا

(1) الخطيئة والتكفير ، د/ عبد الله الغذامي ص٤٠ ، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م ، وانظر : المرايا المقعرة ، للدكتور/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٤.

(2) المرايا المقعرة ، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٧.

(3) المرجع السابق ص٢٥٥.

باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها "[1] ، أي : من وجوه الألفاظ الحوامل للمعاني .

يقول عبد العزيز حمودة : إن الخطابي – هنا – يتحدث عن العلاقة الأفقية ، وهو بذلك يقدم ما يعرّفه المحدثون والحداثيون بالأفق الاستبدالي .

إنه يتحدث عن الاختيار بين المفردات اللغوية ، أو بين الألفاظ الحوامل للمعنى ، وهذا الاختيار يقوم بالطبع على انتقاء اللفظة المناسبة (الأفضل) من بين ألفاظ أخرى مشابهة أو مرادفة ، أو حتى مخالفة ، أليس هذا – في إيجاز – هو جوهر محور الاستبدال ؟[2]

وقد نبه أبو هلال العسكري في أكثر من موضع من كتابه "الصناعتين " إلى أن تخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته[3] ، يقول : " فإذا عملت القصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ورث ورذل ، والاقتصار على ما حسن وفخم ، بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوي أجزاؤها وتتضارع هواديها وأعجازها "[4] .

وساق أبو هلال العسكري لذلك أمثلة ، منها : قوله : أنشدنا

---

(1) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ص٢٧.

(2) المرايا المقعرة د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٥.

(3) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٥٩.

(4) المصدر السابق ص١٥٧.

أبو أحمد (رحمه الله) قال : أنشدنا أبو بكر بن دريد :

طَرَقَتكَ عَزَّةُ مِن مَزارٍ نازِحٍ  يا حُسن زائِرَةٍ وَبُعدَ مَزارِ

ثم قال أبو بكر : لو قال : " يا قرب زائرة وبعد مزار " لكان أجود .

وهو كذلك لتضمنه الطباق[1] ، ووراء هذا الطباق ملمح آخر ، هو أن صاحبته على بعد مزارها النازح شديدة القرب منه ، لا تفارق روحه وعقله وخياله .

ويرى ابن الأثير أن الألفاظ المفردة في حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم[2] ، وأن اللفظتين قد تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه تلك ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك[3] .

ويؤكد حازم القرطاجني أن لطف المأخذ لا يخلو من أن يكون من جهة تبديل أو تغيير ، أو اقتران بين شيئين ، أو نسبة بينهما ، أو نقلة من أحدهما إلى الآخر ، أو تلويح به إلى جهة وإشارة به إليه[4] .

فأول مداخل لطف المأخذ عنده إنما يكون من جهة تبديل أو تغيير (استبدال واختيار) ، سواء أكان ذلك لجملة ، أم كلمة ، أم صيغة ، أم بنية .

---

(1) الصناعتين ص١٥٧ ، ١٥٨.

(2) المثل السائر لابن الأثير ق١ ص١٦٣.

(3) المصدر السابق ق١ ص١٦٤.

(4) منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ص٣٦٧.

## جدلية العلاقة بين الحضور والغياب عند نقادنا القدماء :

لم ينظر نقادنا القدماء إلى موضوع الحضور أو التجلي أو الذكر بمعزل عن موضوع الغياب أو الخفاء أو الحذف ، إنما نظروا إلى كل من المتقابلين في ضوء علاقته بالآخر .

وهو ما نبه إليه عبد القاهر في قوله : إذا قلت : زيد طويل وعمرو قصير لم يصلح مكانه يطول ويقصر ، وإنما تقول : يطول ويقصر إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر ، والنبات ، والصبي ، ونحو ذلك ، مما يتجدد فيه الطول أو يحدث فيه القصر ، فأما وأنت تتحدث عن هيئة ثابتة وعن شيء قد استقر طوله ، ولم يكن ثم تزايد وتجدد – فلا يصلح فيه إلا الاسم.

وإذا ثبت الفرق بين الشيئين في مواضع كثيرة ، وظهر الأمر بأن ترى أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه – وجب أن تقضي بثبوت الفرق حيث ترى أحدهما قد صلح في مكان الآخر ، وتعلم أن المعنى مع أحدهما غيره مع الآخر ، كما هو العبرة في حمل الخفي على الجلي[1] .

ويقول : وهذا نوع آخر من أنواع الإضمار والحذف يسمى الإضمار على شريطة التفسير ، كقولهم : أكرمني وأكرمت عبد الله ، فالمراد : أكرمني عبد الله وأكرمت عبد الله ، فترك ذكره في الأول استغناء بذكره في الثاني، ومن لطيف ذلك ونادره قول البحتري :

لَو شِئتَ لَم تُفسد سَماحَةَ حاتِمٍ  كَرَمًا وَلَم تَهدِم مَآثِرَ خالِدِ

---

(1) دلائل الإعجاز ص١٨٣ ، ١٨٤.

الأصل – لا محالة – : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة ، وهو على ما ذكرت من أن الواجب في حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ ، فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله ، فقلت : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس ، وذلك أن في البيان بعد الإبهام وبعد التحريك له لطفًا ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك ، وأنت إذا قلت : " لو شئت " علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء ، فهو يضع في نفسه أن هنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون أو لا يكون ، فإذا قلت : " لم تفسد سماحة حاتم " عرف ذلك الشيء[1] .

وعليه قول طرفة بن العبد :

وَإِن شِئتُ لَم تُرقِل وَإِن شِئتُ أَرقَلَت
مَخافَةَ مَلوِيٍّ مِنَ القَدِّ مُحصَدِ[2]

فإنك لو قلت : وإن شئت ألا ترقل لم ترقل – أذهبت الماء والرونق ، وخرجت إلى كلام غث ولفظ رث[3] .

---

([1]) دلائل الإعجاز ص١٧٤ ، ١٧٥.

([2]) الإرقال : هو أن تنفض الناقة رأسها لشدة سيرها ، الملوي : السوط ، القد : ما قد من الجلد ، المحصد : الشديد الفتل.

([3]) دلائل الإعجاز ص١٧٦ ، ١٧٧.

وقد بنى بعض نقادنا القدماء كثيرًا من ملاحظاتهم النقدية على العلاقة بين الحاضر والغائب ، بين ما ذكر وما كان ينبغي أن يكون حاضرًا متجليًا في النص .

ومن هذه الملاحظات النقدية :

١ – قول المرزباني في موشحه : أخبرني محمد بن يحيى، قال : حدثنا محمد بن يزيد النحوي، قال : حدثنا المازني، قال : سمعت الأصمعي يقول : كان امرؤ القيس ينوح على أبيه حيث يقول :

رُبَّ رامٍ من بني ثعلٍ      مخرج زنديه من ستره[1]

ثم قال : أما علم أن الصائد أشد ختلاً من أن يُظهر شيئًا منه ، ثم قال : فـ " كفيه " إن كان لا بد أصلح[2] .

فبالنظر إلى اختيار اللفظ الأدق الذي يناسب المعنى والسياق ، أو في إطار الفحص الاستبدالي – وفق تعبير بعض النقاد المحدثين – يرى الأصمعي أن الصائد الماهر ينبغي ألاّ يَظهر من جسمه شيء أصلاً ، لئلا ينفر الصيد منه ، فإن اضطر إلى إظهار شيء للتمكن من الرمي ، فلا ينبغي أن يتجاوز الكفين إلى الزندين .

أليس ذلك اختيارًا واعيًا من سلسلة البدائل اللغوية بعد اختبارها ؟

٢ – ما نقله المرزباني وغيره من نقد النابغة لقول حسان بن ثابت :

---

(١) بنو ثعل : قبيلة من طيء معروفة بالرمي.

(٢) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزباني ص٣٥.

وَلَـــدنا بَـــني العَنقـــاءِ وَابـــني مُحَـــرِّقٍ
فَـــأَكرِم بِنـــا خـــالاً وَأَكـــرِم بِنـــا اِبنَمـــا
لَنـــا الجَفَنـــاتُ الغُـــرُّ يَلمَعـــنَ بِالضُّـــحى
وَأَســـيافُنا يَقطُـــرنَ مِـــن نَجـــدَةٍ دَمـــا

حيث قال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وفي رواية أنه قال له : ما صنعت شيئًا ، قللت أمركم فقلت : جفنات وأسياف[1] .

ويعلق أبو بكر الصولي على نقد النابغة لبيتي حسان بقوله : انظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل على نقاء كلام النابغة ، قال له : أقللت أسيافك ، لأنه قال : " وأسيافنا " ، وأسياف جمع لأدنى العدد ، والكثير سيوف ، والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان[2] .

ولا شك أن النقد الذي يتوجه إلى كلمتي : أسياف وجفنات كمفردتين كان ينبغي غيابهما ، وإلى سيوف وجفان كمفردتين كان ينبغي حضورهما ، إنما هو بالنظر إلى سياق النص ، فترك ما كان ينبغي أن يترك ، وحضور ما كان ينبغي أن يذكر من سلسلة البدائل اللغوية ، إنما هو في إطار ما يتطلبه السياق ، ويتم به المعنى ، وتتحقق به البلاغة .

---

(1) الموشح للمرزباني ص٧٧ ، ٧٨.

(2) المصدر السابق ص٧٨.

٣ – تعليق ابن طباطبا على قول الشماخ :

وَأَعـــدَدتُ للســـاقَينِ وَالرِّجـــلِ وَالنَّســـا
لِجامًـــا وســـرجًا فَـــوقَ أَعـــوَجَ مُختـــالِ

يقول : وإنما يلجم الشدقان لا الساقان[١] .

فقد راعى ابن طباطبا بذوقه وحسه النقدي المرهف ما يسميه بعض النقاد المحدثين : سياقًا تتابعيًّا ، أو علاقة أفقية ، ترتبط فيها الكلمة بما قبلها وما بعدها ، ويتحدد دورها ومعناها في ضوء علاقتها بالبنى اللغوية أو النصية الأخرى ، فالذي يستدعي حضور مفردة وغياب أخرى هو السياق ، فاللجام لا يناسب الساقين ، إنما يناسب الشدقين ، فكان على الشاعر إما أن يعبر بالشدقين بدلاً من الساقين ، أو أن يتخير من سلسلة البدائل اللغوية – أو من السجل السياقي ، كما يسميه بعض النقاد المحدثين – مفردة غير كلمة "لجامًا" تتناسب وتتوافق مع ما ساقه الشاعر في الشطر الأول من البيت .

٤ – قول قدامة بن جعفر : سألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة فقال : هي مداخلة الشيء في الشيء ، ومحال أن ننكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من وجه أو ما كان من جنسه ، وإنما النكير في أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به[٢] ، ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص١٦٠.

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص١٧٤ ، تحقيق: الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

فَما رَقَدَ الوِلدانُ حَتّى رأيته عَلى البَكرِ يَمريهِ بِساقٍ وحافر

فسمى رجل الإنسان حافرًا[1] .

ومنه قول أوس بن حجر التميمي يرثي فضالة بن كلدة الأسدي :

لِيَبكِكَ الشَّربُ وَالمُدامَةُ وَالـ ـفِتيانُ طُرًّا وَطامِعٌ طَمِعا[2]

وَذاتُ هِـدمٍ عـــارٍ نَواشِرُها تُصمِتُ بِالماءِ تَولَبًا جَدِعا[3]

فسمى الصبي تولبا ، وهو ولد الحمار[4] .

فاستهجان قدامة لكلمة "حافر" وكلمة "تولبا" راجع إلى حضور كل منهما في سياق لم يكن يتطلبها ، لتنافرها مع بنية النص ، إنما كان يتطلب غيرها مما يتم به المعنى ، ويتلاحم مع البنى الأخرى ويشاكلها .



(1) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص١٧٥.

(2) الشَّرب (بفتح الشين) : جماعة الشاربين.

(3) الهدم : الثوب الخلق البالي المرقع ، النواشر: جمع ناشرة ، وهى الأوردة التي تكون تحت الجلد في باطن الذراع ، وقوله : عار نواشرها – هنا – كناية عن الهزال الذي أصابها.

(4) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص١٧٥.

# المبحث الثاني

# جدلية الحضور والغياب عند النقاد المحدثين والمعاصرين

## أ – د/ صلاح فضل ورؤيته لهذه القضية :

حاول د/ صلاح فضل وضع تصور لعلاقات الحضور والغياب يقوم على التمييز بين نوعين من العلاقات التي يمكن ملاحظتها في العمل الأدبي ، وهما :

النوع الأول : علاقات الحضور :

وهي علاقات تقوم بين العناصر الحاضرة ، وتبنى على أساس التسلسل والتوافق ، أو الترابط ، أو التتابع بين الكلمات أو الإشارات على مستوى المقال الفعلي ، أي خط الكلمات المتتالية ، ويطلق عليها : العلاقات السياقية ، أو علاقات المجاورة[1] .

النوع الثاني : علاقات الغياب :

وهي علاقات تقوم بين العناصر الحاضرة والعناصر الغائبة ، أي : علاقة كل عنصر في النص أو السياق بما يثيره من عناصر مخالفة له تم اختياره دونها ، ولكنها تمثل الثروة الاحتياطية له التي كان من الممكن أن تحل

---

(1) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ص٢٠٣ ، ٢٠٤، وانظر : كتابه: إنتاج الدلالة الأدبية ص٣٧ ، ط/ المركز الإسلامي للطباعة ، نشر مؤسسة مختار للتوزيع والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٨٧م.

محله ، ويطلق عليها : علاقات المخالفة ، أو الاستبدال[1] ، أو العلاقات الإيحائية[2] .

ولخص د/ فضل تصوره لهذه القضية في عدة نقاط ، أهمها :

١ – أن علاقات الحضور هي علاقات تصور وتكوين ، حيث تتوالى الأحداث ، وتشكل الشخصيات فيما بينها مجموعات متقابلة متدرجة لا رموزًا ، وتتآلف الكلمات داخل علاقة دلالية بقوة البنية لا بالإيحاء ، وباختصار : فإن الكلمات والأحداث والشخصيات لا تعني غيرها ، ولا ترمز إليه ، ولكنها تتجاور معه وتتركب به .. أما علاقات الغياب فهي علاقات معنى ورمز ، فهذا الدال يدل على ذلك المدلول ، وهذه الحقيقة تقتضي أخرى ، وهي أن الحادثة ترمز لفكرة ، وتلك الفكرة توضح نفسية الشخصيات ، أو تسهم في تفسير حدث ، ونحو ذلك مما تفيده العلاقات الإيحائية[3] .

٢ – أن علاقات الحضور تتصل اتصالاً مباشرًا بالجانب النحوي – بالمعنى الشامل لهذه الكلمة – وتقوم على أساسه ، أما علاقات الغياب فتقوم على مراعاة البعد الدلالي ، وما يثيره من رمز أو إيحاء[4] .

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ص٢٠٣، وانظر : إنتاج الدلالة الأدبية للمؤلف نفسه ص٣٧.

(٢) انظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي ص١٠٠.

(٣) المرجع السابق ص٢٠٥.

(٤) المرجع السابق ص٢٠٥.

٣ – أن هناك عناصر غائبة من النص ، ولكنها شديدة الحضور لدرجة أنه يمكن اعتبارها عناصر حاضرة ، وعلى العكس قد نجد بعض العناصر الحاضرة بعيدة عن لحمة النص وبنائه لدرجة يمكن معها اعتبار علاقتها من النوع الثاني ، أي : من العناصر الغائبة[١] .

٤ – أنه لا يمكن تحليل النص الأدبي إلى وحدات متتابعة دون اعتبار مجموعات الرموز التي تكونه ، فهو رسالة تنقل دلالة سياقية لكنها في الوقت نفسه ذات قيمة بنائية ، مما يفرض ضرورة قيام علاقة جدلية بين محوري المجاورة والمخالفة (الحضور والغياب) ، أي أنه لا بد من توضيح القيم لتحويل الدلالة وعقد الصلة بينها وبين المستوى النحوي[٢] .

ونلاحظ أن د/ صلاح فضل اقتفى أثر عبد القاهر وأفاد منه في أمرين:

أ – قوله : إن علاقات الحضور تتصل بالجانب النحوي بالمعنى الشامل لهذه الكلمة .

فالمعنى الشامل للجانب النحوي ، ومراعاة أصوله وأحكامه وقواعده إنما هو لب ومحور قضية النظم عند عبد القاهر[٣] .

ب – قوله : إن هناك عناصر غائبة من النص ، لكنها شديدة الحضور إلى درجة أنه يمكن اعتبارها عناصر حاضرة.

وهذا عين ما قرره عبد القاهر من أنك قد تجد ترك الذكر أفصح من

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي ص٢٠٤.

(٢) المرجع السابق ص٢٠٣.

(٣) انظر : دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ص١١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٦٨ ، ٤٥٩.

الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن[1] ، وأن هناك من المحذوف ما لو أظهرته لصرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس[2] .

ومع ذلك يعد د/ صلاح فضل من أبرز الكُتّاب المعاصرين الذين حاولوا وضع تصور نقدي وأساس تنظيري لعلاقات الحضور والغياب في النص الأدبي .

## ب – د/ محمد عبد المطلب وجدلية الحضور والغياب :

يعد د/ محمد عبد المطلب من أبرز النقاد المحدثين الذين أشاروا بوضوح إلى قضية الحضور والغياب في النقد الأدبي ، وهو أحد النقاد الذين أنصفوا نقادنا القدماء ولم يبخسوا حقهم في تناولهم لهذه القضية ، فقد أكد الرجل أنهم كانوا على وعي كبير بعلاقات الحضور والغياب ، وأنهم أفادوا من فهمهم لهذه العلاقات في تحليل كثير من النماذج الأدبية ، واستخلاص ما فيها من ألوان الجمال والإبداع[3] .

ويرى أن مباحث الذكر والحذف كانت وسيلتهم لإبراز دور هذه العلاقات في العمل الأدبي ، فقد كان منطلقهم أن النظام اللغوي في الأصل يقتضي وجود أطراف يجمعها إسناد ظاهر أو مقدر ، لكن التطبيق اللغوي قد يسقط أحدها اعتمادًا على دلالة القرائن المقالية أو الحالية ،

---

(1) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر ص١٦٢.

(2) المصدر السابق ص١٧٥.

(3) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د/ محمد عبد المطلب ص١٨١.

وقد يحرص هذا التطبيق على إبرازها لتدل في موضعها دلالة لا تتحقق بغيابها[1] .

وفي تناوله لهذه القضية اقتفى عبد المطلب أثر عبد القاهر في كثير من المواقف ، ونقل كثيرًا من نصوصه وشواهده وتعليقاته الفنية والنقدية[2].

وعلى نحو ما كان من صلاح فضل تابع عبد المطلب الإمام عبد القاهر في التأكيد على مرتكزين أساسين لتناول هذه القضية ، هما :

١ – أن النحو بمعناه الواسع يمثل أهم مؤثر في خلق الإطار الدلالي في مستواه الخارجي الشكلي ، وفي مستواه النفسي العميق[3] .

يقول عبد المطلب : ويكاد يكون النحو بمستوياته المختلفة هو العنصر الفعال في التراكيب ، وقد أفاد بعض الدارسين وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني في الكشف عن نظام هذه التراكيب .

فاللفظة لا يكون لها مزية وفضيلة إلا بوضعها في تركيب ، أي بأن يكون لها دور فعال في خلق النظم وابتداعه ، وليست المسألة مجرد ضم كلمة إلى أخرى ، وإنما تعليقها بها هو الذي يساعد على اكتمال البناء اللغوي ، لأن التعليق هو الذي يتيح للصياغة أن تتشكل في مستويات دلالية مختلفة،

---

(1) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ص١٨٢.

(2) راجع : البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص٣١٣ وما بعدها ، وانظر: جدلية الإفراد والتركيب ، للمؤلف نفسه ص١٦٠ ، ص١٨٣-١٨٥.

(3) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، د/ محمد عبد المطلب ص١٣٤.

فتأتي الإفادة اللطيفة[1] .

٢ – أن ترك الذكر في الموضع الذي ينبغي أن يترك فيه يكون أفصح من الذكر .

يقول عبد المطلب : وقد يكون للتركيب أثره الدلالي من خلال حضور بعض عناصره أو غيابها ، بل إن هذا الغياب قد يكون أكثر إفرازًا للدلالة من الحضور[2] ، فالأساس العام لمفهوم الحذف ينطلق من الحاجة الفنية للمبدع في استخدام هذا النسق من الأداء ، بحيث يكون العدول عنه إفسادًا له[3] .

ويثني عبد المطلب على نظرة عبد القاهر الشمولية للسياق ، وأن مرجعية الذكر أو الحذف عنده هي مدى تطلب السياق لأيٍّ منهما ، يقول: إن ارتباط الفعل بما يليه من فاعل أو مفعول – من خلال منظور عبد القاهر – يمثل علاقة أساسية لا تَميُّز فيها بينهما ، خلافًا لنظرة النحاة من أن الفاعل يعتبر عمدة والمفعول فضلة يمكن الاستغناء عنها ، أما عنده فحال الفعل مع المفعول يتعدى إليه حاله مع الفاعل ، فإذا قلت : ضرب زيد ، فأسندت الفعل إلى الفاعل لمّا كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له ، لا أن تفيد وقوع الضرب في نفسه وعلى الإطلاق .

كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت : ضرب زيد عمرًا كان

---

([1]) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ص٣١٥.

([2]) المرجع السابق ص١٦٠.

([3]) البلاغة والأسلوبية ، د/ محمد عبد المطلب ص٣١٣.

غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما من أجل الدلالة على تلبس المعنى الذي اشتق منه بهما[1] ، فعمل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه ، والنصب في المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه[2] .

والملاحظ أن سياقات الحذف تمثل – على نحو من الأنحاء – أثر النحو في خلق العلاقات داخل التركيب ، وهذه العلاقات لا تتعامل مع عناصر التركيب على أساس من أهمية بعضها وعدم أهمية بعضها الآخر ، وإنما السياق هو الذي يعطي لكل عنصر أهميته ، بحيث يكون إسقاطه مبرزًا لهذه الأهمية أكثر من ذكره[3] .

وكما أن الحذف أو الغياب يحسن إذا أصيب به موضعه ، فالذكر أو الحضور يكون كذلك إذا أصيب به موضعه – أيضًا – كقول الشاعر :

فلو شئت أن أبكي دمًا لبكيته       عليك ولكن ساحة الصبر أوسع

فإظهار مفعول المشيئة هنا أحسن من إضماره ، وسبب ذلك أن من العجيب أو الغريب أن يشاء الإنسان أن يبكي دمًا ، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح به ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به[4] .

---

(1) البلاغة والأسلوبية د/ محمد عبد المطلب ص٣١٧، وانظر : دلائل الإعجاز ص١٦٨.

(2) دلائل الإعجاز ص١٦٨.

(3) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د/ محمد عبد المطلب ص١٨٤.

(4) البلاغة والأسلوبية ص٣١٩، وانظر : دلائل الإعجاز ص١٧٤.

يقول عبد المطلب : فالسياق عند عبد القاهر لا يعتبر الكلمة نقطة البدء ، وإنما العكس هو الصحيح ، فالسياق هو نقطة البدء ، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله ، وحينئذ يكون من الواجب رصد السياق أولاً ، ثم البحث عن الألفاظ وعلاقاتها فيه ثانيًا[1] .

وإذا كان السياق هو الذي يعطي المدلولات فإنه من جانب آخر هو الذي يعطي الشكل التركيبي للعبارة ، بحيث يكون هناك تفاعل أكيد بينهما .

وكلما أتيح لنا – بدقة – رصد السياقات التي تحيط بعملية الإبداع استطعنا تفهم الكثير من العلاقات التركيبية بين أجزاء الكلام .

وعلاقة واحدة كعلاقة الحذف يجب أن تفهم في ضوء مجموعة من العلاقات الأخرى ، وبخاصة العلاقة المقابلة وهي الذكر ، وليس من المحتم أن تكون سياقات الذكر عكس سياقات الحذف ، بل إنهما قد يتواردان في سياق واحد ما دام هذا السياق في حاجة إلى أيٍّ منهما[2] .

## ج – د/ عبد العزيز حمودة وثنائية الحضور والغياب :

يعد د/ عبد العزيز حمودة من أبرز النقاد المحدثين المنصفين للتراث المتحمسين له ، الداعين إلى إعادة قراءته قراءة عصرية تسهم في التأسيس لنظرية عربية في النقد الأدبي ، وذلك مع استيعاب وفهم ناضج لمعطيات

---

(1) البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب ص٣٢١.

(2) المرجع السابق ص٣٢١ ، ٣٢٢.

الحداثة وما يمكن أن يؤخذ منها أو يرد عليها ، فالرجل لم ينسلخ من ماضيه، ولم ينعزل عن واقعه ، بل حاول أن يقف موقفًا متوازنًا في نصفة ووعي واعتدال .

وقد تحدث عبد العزيز حمودة عن ثنائية الحضور والغياب في كتابيه : (المرايا المحدبة) ، و(المرايا المقعرة) ، بصورة مباشرة حينًا[1] ، وصورة ضمنية أو غير مباشرة أحيانًا أخرى[2] .

ففي معرض حديثه عن التفكيك تحدث حمودة عن ثنائية الحضور والغياب عند التفكيكيين ، يقول : إن الأمر عند "دريدا" والتفكيكيين عامة لا يتوقف عند مجرد تحديد موقف يؤدي إلى رفض ميتافيزيقا الحضور[3] ، ويؤسس لقيام ثنائية الحضور والغياب ، حيث لا يمكن اعتبار أي عنصر في النسق اللغوي أو النص الأدبي حاضرًا فقط أو غائبًا فقط ، فكل عنصر يتشكل في علاقته – في اختلافه – مع العناصر الأخرى داخل النسق فقط.

وقد طور التفكيكيون مفهوم ثنائية الحضور والغياب إلى عدد من

---

(1) انظر : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، د/ عبد العزيز حمودة ص٣٧٨-٣٨٣.

(2) انظر : المرايا المحدبة ص٢٥٧ وما بعدها ، والمرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية ، للمؤلف نفسه ص٢٤٧ وما بعدها.

(3) ميتافيزيقا الحضور : مصطلح تفكيكي نحته دريدا ، ويعني القول بوجود سلطة أو مركز خارج النص أو خارج اللغة يكفل ويثبت صحة المعنى دون أن يكون هو قابلاً للطعن فيه أو البحث في حقيقته، ويقف دريدا والتفكيكيون موقفًا معارضًا لميتافيزيقا الحضور ، لرفضهم أي سلطة تأتي على النص من خارجه. راجع : المرايا المحدبة ، للدكتور/ عبد العزيز حمودة ص٣٧٨ ، ٣٧٩، ص٣٨٢

التنويعات أو استراتيجيات التفسير ، تفسير النص الأدبي بالطبع[1] .

ومن هذه التنويعات البحث في علاقة العناصر والوحدات الصغرى بعضها ببعض في ضوء هذه الثنائية ، فعلى حد تعبير دريدا : إن أفق الغياب هو أفق خلفي للحضور ، فعلى الرغم من أن طرفي الثنائية لا يكون لهما حضور متزامن داخل الوعي ، فإن حضور أحدهما أمام الوعي يؤدي إلى استدعاء الآخر الغائب[2] .

ويقول كاللر : إن المعنى الحاضر في اللحظة الحالية يحدده – عن طريق الاختلافات والمقابلات – غياب المعاني الأخرى في زمن آخر ، وكأن الوحدة اللغوية أو العلامة مرآة ذات وجهين : وجه منها مرآة فقط – مرآة تعكس الحضور – ، أما الوجه الآخر فهو شفاف ينقل إلينا ممالك أخرى من الغياب ، وإن ذلك الغياب الحاضر أو حضور الغياب يفسر ما يسمى بتعدد الأصوات في النص[3] .

ويعرض عبد العزيز حمودة لجدلية الحضور والغياب في ثنايا حديثه عن المحور الأفقي (التتابعي) والمحور الرأسي (الاستبدالي).

فالمحور الأفقي يعني ذلك الخط الأفقي الذي تتوالى أو تتابع فوقه مفردات الجملة أو وحداتها الصغرى ، وتتحدد دلالة الكلمة أو البنية في إطار هذا المحور من خلال العلاقة أو العلاقات بينها وبين الكلمات أو

(1) المرايا المحدبة، د/ عبد العزيز حمودة ص٣٨٢.

(2) المرجع السابق ص٣٨٣.

(3) المرجع السابق ص٣٨٣.

البنى الأخرى التي تسبقها والتي تليها .

أما المحور الرأسي فيعني ذلك الخط الرأسي (المتخيل) الذي يضم مفردات محتملة – مترادفة أو متناقضة مع الكلمة أو البنية الموجودة في النص – كان من الممكن أن تحل محل هذه الكلمة أو البنية المستخدمة بالفعل .

على أن العلاقة بين الكلمة في الوحدة اللغوية والجدول الاستبدالي الذي يثيره حضور الكلمة يسهم في تحديد معناها داخل الوحدة اللغوية أو الجملة .

وقد يحتوي الجدول الاستبدالي كلمات أخرى بديلة كالمفردات ، أو كلمات نقيضة مقابلة يحدد غيابها حضور الكلمة ومعناها، فالمتلقي عندما يقرأ كلمة "بارد" يسعفه مخزونه اللغوي بكلمة "ساخن" التي تحدد معنى الكلمة الحاضر ، فالنص اللغوي يتضمن مجموعة من المتقابلات الثنائية ، بحيث تمثل كل كلمة في ثنائية حضورًا يستدعي كلمة غائبة لتحديد الدلالة الحاضرة[1] .

ويختتم حمودة كلامه عن هذين المحورين في المرايا المحدبة بما نقله عن شكري عياد من أن ما قاله ياكبسون وأتباعه عن تقاطع المحورين الأفقي والرأسي ليس فيه جديد سوى الصياغة "الميلودرامية" المثيرة ، فالمبدأ البنيوي الماركسي القائل بأن العلاقة في النص الأدبي علاقة

(1) انظر: المرايا المحدبة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٨-٢٦١.

تشابه وتضاد بجانب كونها علاقة تجاور – لم يزد على أن كرر شيئًا معروفًا ومفصلاً عند البلاغيين والنقاد[1] .

وفي كتابه "المرايا المقعرة" انبرى عبد العزيز حمودة – في حماسة شديدة – للدفاع عن تراثنا النقدي ، والتأكيد على أن ما يعرف بمحوري التتابع والاستبدال لا يخرج في مضمونه عما قرره القدماء في حديثهم عن الجوار والاختيار ، فالمصطلح المستخدم في وصف العلاقة الأفقية – التي هي محور النظم – هو الجوار أحيانًا ، والضم أحيانًا أخرى ، والمصطلح المستخدم في وصف العلاقة الرأسية (الاستبدال) إنما هو (الاختيار) ، وهو ما يؤدي المعنى الحديث بالكامل[2] .

ويؤكد أن فهم هذه العلاقات التتابعية أو الاستبدالية سبق إليه الخطابي ، والباقلاني ، وعبد القاهر ، وابن الأثير ، وغيرهم[3] .

وقد قدم أسلافنا القدماء هذه المفاهيم دون غموض أو مراوغة ، ودون كهنوت حداثي ، وذلك قبل أن يقول به ياكبسون ، أو بارت ، أو آخرون من أقطاب الفكر الحداثي وما بعد الحداثي الغربي[4] .

لكن بعض النقاد في انبهاره بالحداثة الغربية ومصطلحاتها ، وتنكره

---

(1) المرايا المحدبة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٦٤ ، نقلاً عن مقال لشكري عياد بعنوان " موقف من البنيوية " بمجلة فصول ، المجلد الأول ، العدد الثاني ص١٩٩، إصدار يناير سنة ١٩٨١م.

(2) انظر : المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٥.

(3) راجع : المرجع السابق ص٢٥١-٢٥٦ ، ص٢٣٤ ، ٢٣٥.

(4) المرجع السابق ص٢٥٤.

لتراثه يتجاهل المفاهيم الواضحة ومصطلحاتها الراسخة في تراثنا النقدي ، وكأن الفكرة النقدية إذا اقترنت باسم أجنبي تكتسب علمية تفتقدها حينما تذكر مقرونة بقدامة ، أو أبي هلال ، أو القاضي الجرجاني ، أو الإمام عبد القاهر ، أو ابن الأثير ، أو حازم القرطاجني ، وغيرهم من أعلام النقد العربي القديم .

ثم كأنها – أيضًا – تكتسب هذه العلمية حينما تتعمد لفت النظر إلى صياغتها المراوغة الجديدة ، ويتحقق لها عمق العلم ، وهو عمق لا يتوفر للفكرة نفسها إذا جاءت واضحة دقيقة محددة عند عبد القاهر أو غيره من النقاد العرب القدماء[1] .

وكان يجب ألا يكون الأمر كذلك بالنسبة للمثقف العربي لو أنه في حماسه للتحديث وانبهاره بمنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي، ويعمل على القطيعة معه أو التنصل منه[2] .

إننا لا نقول بالقطيعة مع العالم من حولنا أو اعتزاله ، لكننا نقول : إن بعض النقاد المحدثين والمعاصرين قام بعملية خيانة ثقافية حينما ربط الاتصال بالآخر الثقافي بالقطيعة مع التراث ، وكان من الممكن أن تتم عملية تزاوج ثقافي صحيحة بين القديم والحديث ، فإن تراثنا العربي لم يكن أبدًا متخلفًا[3] ؛ بل إنه قدم من الملاحظات النقدية ما لو أحسنا فهمه

---

(1) المرايا المقعرة ص٢٥٠.

(2) المرجع السابق ص٢٥٧.

(3) المرجع السابق ص٢٤٤.

وإعادة قراءته وأنصفناه حقه لكان قادرًا على تطوير نظرية عربية في النقد الأدبي ، فإن الحياة الأدبية العربية كانت لمدة أربعة أو خمسة قرون تموج بالتيارات اللغوية والنقدية بصورة لا تقل عن حركة الحياة الأدبية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وأن ذلك كله بدأ ووصل إلى ذروته ثم انتهى في وقت كانت أوروبا فيه تعيش في ظلام دامس[1] .

## د - نقاد وكُتَّاب آخرون:

لا شك أن الحديث عن علاقات الحضور والغياب ، ومحاولة الإفادة من فهم هذه العلاقات وتوظيفها في النقد التطبيقي - لم يكن قصرًا على عدد معين أو محدد من النقاد أو الكُتّاب ، فقد وجدنا هنا أو هناك إشارات إلى هذه العلاقات سواء في مجال التنظير أم ميدان التطبيق النقدي .

ومن الكُتّاب والنقاد الذين أشاروا إلى هذه العلاقات أو أفادوا منها في تطبيقاتهم - سواء أكان ذلك بصورة مباشرة واضحة جلية ، أم كان بصورة ضمنية من خلال التطبيق ، أم في ثنايا قضية نقدية أخرى اقتضى سياقها التطرق إلى هذه العلاقات - نذكر :

١ - الأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري في كتابه " بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم " .

فقد ذكر أن الحذف (الغياب) المسبب لاجتهاد الذهن في طلب المحذوف يسبب زيادة في اللذة باستنباط الذهن للمحذوف ، وكلما كان

---

(1) المرايا المقعرة ص١٩٤.

الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأحسن ، واستأنس بكلام عبد القاهر في أن الحذف إذا أصيب به موضعه كان أفضل من الذكر ، وكان إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به[1].

ومن أهم الأفكار التي أكد عليها د/ الظواهري وتجدر الإشارة إليها فيما يتصل بموضوعنا – أمران :

أحدهما : أن الحذف – الذي يعبر عنه بعض النقاد المحدثين بالغياب أو المسكوت عنه – قد لا يقصد به مجرد الإيجاز في اللفظ بقدر ما يقصد به تحقيق نوع من الحضور في العرض أو المشهد أو النص[2] ، وأن الحذف يأتي في كثير من المواضع دالاً على أشياء في النفس قد يعجز الأسلوب التام عن بيانها ، أو لا يدل على مثلها[3] .

وعقد أ.د/ الظواهري في كتابه هذا فصلاً تحت عنوان : " فنون من الحذف لتحقيق الحضور في العرض "[4] .

ومن المواضع التي جاء الحذف فيها لتحقيق الحضور لمشهد القائل وهو ينطق مقالته ، قول النبيﷺ: « إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ

(1) انظر: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ص١٣٠، نشر دار الصابوني ودار الهداية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٩٩م ، وانظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص١٦٨.

(2) انظر : بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ص١٧ ، ص١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢- ٢٦٥ ، ٣٣٠.

(3) المرجع السابق ص٢١٤.

(4) انظر: المرجع السابق ص١٨٧-٢١٧.

أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾[1]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾[2]، ثُمَّ ذَكَرَ ﷺ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[3].

ففي هذا الحديث حذف لفظ القول قبل الدعاء، فجعل الرجل الموصوف كأنه ماثل أمامنا على حاله هذه وهو ينادي ربه: يارب، يارب[4].

الأمر الآخر: أنه إذا كان مجيء الحذف في موضعه يؤدي وظيفة لا يؤديها الذكر فإن الذكر كذلك في موضعه[5]، وهو ما نبّه إليه عبد القاهر في دلائله[6].

ومن الشواهد التي ساقها الأستاذ الدكتور/ الظواهري لذلك على لسان الابن الأكبر من أبناء يعقوب: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ

---

(1) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(2) سورة البقرة: الآية ١٧٢.

(3) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم ١٠١٥ ج ٢ ص٧٠٣ م.

(4) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ص١٦.

(5) انظر: المرجع السابق ص١٥٥.

(6) انظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر ص١٧٥، ١٧٦.

ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

فالسياق يدلنا على كلام محذوف مفاده أن الإخوة قد أعادوا قولهم ؛ وذلك لإثبات صدقهم أمام والدهم ، وجاء ردُّ والدهم في إطار هذا السياق[2] .

أما ما ورد على لسان يوسف في قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

فلو سار السياق على شاكلة الحذف في الآيات السابقة لقيل : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرًا ، وائتوني بأهلكم أجمعين ، فارتد أبوه بصيرًا ، ولكن الذكر هنا له فوائد وأسرار لا يقوم بها الحذف ، فالعبارات المذكورة تحقق دلالات واستنتاجات عميقة فيما يتعلق بحرفية

---

(1) سورة يوسف : الآيات ٨١-٨٣.

(2) انظر : بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ص١٤٩-١٥٢.

(3) سورة يوسف : الآيات ٩٣-٩٦.

القصة من جهة ، وبالجانب العقدي منها من جهة أخرى .

فما ورد على لسان يعقوب دليل على ثقة يعقوب (عليه السلام) في الله تعالى من جهة ، وعلى صدق نبوته من جهة أخرى ، فقد قال يعقوب (عليه السلام) ذلك وما زالت القافلة في الطريق لم تصل بعد .

وفي قول قومه له دلالة على أن محنة يعقوب (عليه السلام) ، وصبره الجميل ، وثقته بالله تعالى، لم تكن مقصورة على امتحانه بفقد ولديه ، وإنما تعدت ذلك إلى الدعوة والتبليغ ، وما عاناه من قومه في سبيل ذلك؛ إذ لو كانوا على درجة عالية من الإيمان واليقين لما أقدموا على توجيه مثل هذا القول له .

وقد كان لهذا الحوار الذي دار بين يعقوب (عليه السلام) وقومه دور واضح في إضفاء جو من الترقب والتوتر على الأحداث ، حيث جعل المتلقي يعود إلى التوتر من جديد بإزاء التحدي الطارئ من عناصر ثانوية في القصة ، وهو ما يضاعف من قيمة المفاجأة التي تحققت عندما ألقى البشير القميص على وجه يعقوب (عليه السلام) فارتد بصيرًا[1] .

وبهذا يكون الذكر في موضعه قد أدى دلالات عميقة ما كان المتلقي ليقف عليها لو حُذف من النص ما يستدعي السياق ذكره٠

٢ – الأستاذة/ مديحة جابر السايح في كتابها " المنهج الأسلوبي في

(1) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ص١٥٢– ١٥٥ بتصرف واختصار.

**النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق " .**

**فقد خصصت في الفصل الثاني من هذا الكتاب مبحثين : أحدهما : للاختيار ، الذي يعبر عنه بالمحور الرأسي أو محور الاستبدال ، والآخر : للسياق ، الذي يعبر عنه بالمحور الأفقي أو المحور التعاقبي[1] .**

**تذكر الكاتبة أن دراسة السياق اللغوي بعلاقاته الأفقية والرأسية تفوق كثيرًا دراسة السياق الخارجي وعلاقة النص به[2] .**

**وتؤكد على ما ذكره د/ محمد عبد المطلب من أن تناول البلاغيين للسياقات المتعددة مثل : سياق الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير - وبخاصة جهد عبد القاهر الجرجاني الذي تميّز بالأصالة والابتكار - يمكن وضعه مع أحدث ما تناولته الدراسات الأسلوبية المعاصرة[3] .**

**وترى أن الكلمة تكتسب مدلولها من السياق ، وتتغير هذه الدلالة بتغيره ، وأن السياق هو الذي يعطي الشكل التركيبي للعبارة ، بمعنى أن فهم السياق المحيط بعملية الإبداع يساعد على فهم الكثير من العلاقات التركيبية بين أجزاء الكلام[4] .**

---

(1) انظر : المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق ، لمديحة جابر السايح ص١٣٧ وما بعدها ، وص١٧٤ وما بعدها ، وص١٨٥- ١٨٧ ، وهذا الفصل تحت عنوان المفاهيم الأساسية للأسلوبية.

(2) المرجع السابق ص١٨٥.

(3) المرجع السابق ص٢٢٨ ، وانظر : البلاغة والأسلوبية ، للدكتور/ محمد عبد المطلب ص٦.

(4) المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق ص١٧٤.

وهذه العلاقات السياقية إنما تعني علاقة المجاورة بين الكلمات ، وتتابع العناصر في الخط والنطق.

أما العلاقات الإيحائية فتعني العلاقات الرأسية أو الاستبدالية ، وهي الكلمات التي تثيرها الكلمة المختارة في السياق بالتداعي والإيحاء[1] .

على أن السياق هو الذي يتطلب اختيار مفردة دون أخرى ، حيث إن الكلمة لا تكتسب مدلولها من معناها المعجمي فقط ، بل من السياق التي ترد فيه أيضًا[2] .

وتشيد الكاتبة بفهم عبد القاهر لقضية الاختيار الذي يمثل أحد أساسي نظرية النظم عنده ، وهما : الاختيار والتأليف ، اللذان يدوران في إطار المعاني النحوية ، فالاختيار عنده يكون بين العناصر النحوية المختلفة على مستوى الإفراد والتركيب ، فعلى مستوى الإفراد يكون الاختيار في التعبير عن كلمة "إنسان" مثلاً بين العلمية "محمد"، والتذكير "رجل"، والتعريف "الرجل" ، والموصولية "الذي أعرفه" ، واسم الإشارة "هذا الإنسان" ، والضمير "هو" ، وعلى مستوى التركيب يكون الاختيار بين التقديم والتأخير ، و الذكر والحذف ، والإيجاز والإطناب ... إلخ[3] .

٣ – وهناك نقاد وكُتّاب آخرون أشاروا إلى العلاقات السياقية بصفة عامة ، أو علاقات الحضور والغياب بصفة خاصة ، أو أفادوا منها في

---

(1) المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق ص١٨٧.

(2) المرجع السابق ص١٤٢.

(3) المرجع السابق ص١٤٦ ، نقلاً عن دراسة للدكتور/ أحمد درويش بعنوان : نظرية النظم عند عبد القاهر ، نشر مجلة دراسات عربية وإسلامية ص١٣٢ ، العدد الرابع ، سنة ١٩٨٥م.

تطبيقاتهم ، منهم :

د/ أحمد ياسوف ، يقول في حديثه عن ظلال الدلالة الخاصة : إنما نتتبع – هنا – ما ورد عند الباحثين حول اختيار مفردة تلقي إشعاعًا شاملاً في مفردات السياق كله ، من حيث لا يسد غيرها هذا المكان ، وتتفرد هي بمكانها من حيث ملاءمة أقصى التأثير ، وقد تكون الكلمة عادية في استعمالنا ، فإذا قرأناها في مكانها من النص وجدنا أنها تتجاوز كل تعابيرنا، متمكنة من موضعها، بمنزلة اللبنة من البناء الكلي[1] .

ومن هذه الملاحظات الفنية تأمل الرماني في تشبيه أعمال الكفار في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[2] ، فإنه يقول : ولو قيل : يحسبه الرائي ماء ، ثم يظهر على خلاف ما قدر لكان بليغًا، وأبلغ منه تعبير القرآن الكريم بـ (الظمآن)؛ لأن الظمآن أكثر حرصًا على طلب الماء ، وأشد تعلقًا به[3] .

فالرماني – هنا – لا يكتفي بجمال التشبيه الحسي ، بل يؤكد لنا إحكام الصورة بما يؤثر تأثيرًا حسيًّا في المتلقي ، ومن الواضح عدم

---

([1]) جماليات المفردة القرآنية ، للدكتور/ أحمد ياسوف ص٢٩٦ ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة حلب ، إشراف: الأستاذ الدكتور/ نور الدين عتر، ط / دار المكتبي دمشق ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

([2]) سورة النور : الآية ٣٩.

([3]) جماليات المفردة القرآنية، د/ أحمد ياسوف ص٢٩٧ ، وانظر: النكت في إعجاز القرآن ، للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر) ص٨١ ، ٨٢ ، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، ط/ دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٩١م.

الترادف بين الظمآن والرائي ، وأن هذا الميل إلى الحسية يؤكد الحد الأقصى من التأثير في الإنسان ؛ لأن أقوى متطلباته تتعلق بالحسية[1] .

ومن الكُتّاب الذين أفادوا من فهم علاقات الحضور والغياب في دراساتهم التطبيقية : عبد العزيز موافي ، يكتب مقالاً نقديًّا تحت عنوان "صيد الفراشات : غياب الذات وحضور العالم " عن ديوان " صيد الفراشات" لمحمد صالح ، يقول في التعليق على إحدى قصائده : وتأتي القصيدة الأخيرة في الديوان لتجسد حالة الاغتراب التي تصل إلى ذروتها عبر فعل الغياب ، فكأن سلطة الواقع تمثل نص الحضور ، أما الذات فيشير إليها نص الغياب ، وبين العنف والكبت من ناحية ، والحضور والغياب من ناحية – تتأسس طبيعة العلاقة بين الذات والعالم داخل الديوان[2] .

وقد أشار في ثنايا حديثه عن ديوان " صورة شخصية " للشاعرة السورية لينا الطيبي إلى علاقة التجاور ، وعملية الإحلال والإبدال ، وأفاد من ذلك في تعليقه النقدي على الديوان[3] .



(1) جماليات اللفظة المفردة، د/ أحمد ياسوف ص٢٩٧.

(2) انظر : دراسات وقضايا في قصيدة النثر العربية ، تحولات النظرة وبلاغة الانفصال ، لعبد العزيز موافي، ص١٣٨ ، ١٣٩ ، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٥م.

(3) المرجع السابق ص١٩٨ ، ١٩٩.

# الفصل الخامس

# الفكر النقدي في المثل السائر
# في ضوء النقد الحديث

## تمهيـد

إن كتاب " المثل السائر " لابن الأثير يعد واحدًا من أهم مصادر التراث النقدي والبلاغي ، ولا شك أنه تضمن كثيرًا من الآراء النقدية الواعية ، التي أفاد منها كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين ، وبنوا عليها – مع ما استنبطوه من مصادر التراث الأخرى – كثيرًا من أفكارهم وأسسهم النقدية .

على أنني أركز في تناولي للفكر النقدي عند ابن الأثير في مثله السائر على ما يتصل بقضايا النقد الأدبي الحديث ، أو بعبارة أخرى سأحاول قراءة هذا الفكر في ضوء خلفية نقدية حداثية عصرية .

ولم أعثر – فيما اطلعت عليه – على دراسة نقدية واحدة تناولت "المثل السائر" لابن الأثير من هذه الزاوية تناولاً شاملاً ، حيث انصبت جهود أكثر المعنيين بالتراث من الحداثيين والأسلوبيين على كتابات عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني ، ولم يأخذ ابن الأثير حظه في دراسات النقاد المحدثين والمعاصرين إلا في مواطن متفرقة .

ولعل أهم ما كُتِبَ حول نقد ابن الأثير هو رسالة العالمية "الدكتوراه" لمحمد زغلول سلام، وموضوعها " ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد" ، لكنها – بالطبع – لم تقتصر على " المثل السائر" ، إنما تناولت كل جهود ابن الأثير النقدية، وكان " المثل السائر " أحد محاورها، وكان الباحث ما يزال في بداية حياته العلمية فلم يبرز أثر الفكر النقدي عند ابن

الأثير في النقد الحديث ، وجاء تناوله له أقرب إلى الدراسات التقليدية منه إلى الدراسات الحديثة أو العصرية .

وبعد قراءة متأنية لـ " المثل السائر " رأيت أن أجعل دراستي له في أربعة مباحث :

أما المبحث الأول : فيتناول التعريف بابن الأثير وكتابه" المثل السائر".

أما المبحث الثاني : فعن نظرة ابن الأثير إلى اللفظة المفردة، ويتناول :

أولاً : قيمة اللفظة المفردة .

ثانيًا : المستوى الصوتي للفظة المفردة .

ثالثًا : المستوى الدلالي للفظة المفردة .

وأما المبحث الثالث : فعن نظرة ابن الأثير إلى الجملة والسياق، ويتناول :

أولاً : نظرته إلى الجملة .

ثانيًا : نظرته إلى السياق .

وأما المبحث الرابع : فيتناول رأي ابن الأثير في بعض القضايا النقدية الأخرى، وفيه تحدثت عن رأيه في قضايا : الذوق الأدبي ، والطبع والصنعة ، والبديع، والتماسك النصي ، والسرقات الأدبية ، والقديم والمحدث ، والعدول والانحراف.

# المبحث الأول

# التعريف بابن الأثير وكتابه «المثل السائر»

## أولاً: التعريف بابن الأثير:

هو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بضياء الدين بن الأثير [1].

ولقبه " ضياء الدين " يميزه عن أخويه : أبي السعادات مجد الدين ابن الأثير صاحب كتاب " النهاية في غريب الحديث والأثر " المتوفي سنة ٦٠٦هـ ، وأبى الحسن عز الدين بن الأثير صاحب كتاب " الكامل في التاريخ " المتوفي سنة ٦٣٠هـ ، وكانوا جميعًا من العلماء المعدودين، كل في ميدانه [2].

(١) راجع في ترجمته وأخباره: وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٨٩، ومرآة الجنان لليافعي ج ٤ ص ٩٧، نشر مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، وبغية الوعاة للسيوطي ج ٢ ص ٣١٥، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار الفكر ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص١٨٧، والأعلام للزركلي ج ٨ ص ٣٥٤، ط/ دار العلم ، بيروت ، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، وضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٣٢ وما بعدها ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٨١م ( سلسلة نوابغ الفكر العربي).

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١١٠ ، تحقيق: محمد عبد العزيز النجار ، نشر دار الغد العربي، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ومقدمة كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ص ٢٧.

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر الواقعة شمال الموصل سنة ٥٥٨هـ، ونشأ في بيت عز ومجد ، حيث كان والده أبو الكرم محمد الملقب بـ " أثير الدين " مقربًا من آل زنكي ، ولاه قطب الدين بن زنكي على جزيرة ابن عمر ، ثم جعله صاحب خزانته بالموصل .

وقد أعد أثير الدين أولاده إعدادًا أهلهم – فيما بعد – للكتابة والولاية والوزارة(١)، وحين انتقل من جزيرة ابن عمر إلى الموصل انتقل معه أبناؤه، وبها أتم ضياء الدين تعليمه، فحفظ القرآن الكريم ، وكثيرًا من أحاديث النبي ﷺ، وكثيرًا من أشعار القدماء والمحدثين، فحفظ شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ، وجانبًا كبيرًا من أشعار غيرهم ، ودرس النحو واللغة والبيان (٢)، مما أسهم في صقل موهبته ، وقدرته على التصرف في وجوه المعاني ، وحل المنظوم، والاستعانة به في كتابته ونثره .

وفي سنة ٥٨٧هـ اتصل ضياء الدين بالقاضي الفاضل، فوصله القاضي الفاضل في شهر جمادى الآخرة من هذه السنة بخدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فأقام في خدمته إلى شهر شوال من السنة نفسها، ثم طلبه الأفضل بن صلاح الدين من والده، فخيره صلاح الدين بين الإقامة عنده والانتقال إلى ولده الملك الأفضل نور الدين ، فاختار الانتقال إلى نور الدين الذي قربه منه، واتخذه وزيرًا له ، فلما توفي صلاح الدين

---

(١) انظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٣٠٣.

(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٨٩، وبغية الوعاة للسيوطي ج ٢ ص ٣٥٥.

واستقل الأفضل بحكم دمشق ألقى بكثير من أمور الدولة إلى وزيره ضياء الدين ، لكن الأفضل لم يسر على نهج والده في الحزم وسداد الرأي، وكان وزيره ضياء الدين شديد الاعتداد بنفسه، مستعليًا على أهل مملكته، ولم يحسن معاملتهم، فضجروا من سياسته، وثاروا عليه وعلى مَلِكه الأفضل ، ووقفوا إلى جانب العزيز عثمان بن صلاح الدين وعمه الملك العادل، وأعانوهما على انتزاع دمشق من الملك الأفضل ، واضطر الأفضل إلى الصلح، وأن ينتقل من ملك دمشق والشام إلى ولاية صغيرة في صرخد[1] ، فخرج ابن الأثير متخفيًا خوفًا على حياته، ولحق بالأفضل في صرخد[2].

وبضياع دمشق من يد الأفضل وخروجه إلى صرخد، وهروب ابن الأثير للحاق به، تنتهي إلى حد كبير أطماع ابن الأثير السياسية وآماله الكبيرة التي كان يبنيها لنفسه كرجل دولة له شأنه [3].

وأخذت الأيام تتقلب بابن الأثير، فعندما خرج الملك الأفضل من صرخد إلى مصر لحق ابن الأثير به، ثم ترك الأفضل مصر عائدًا إلى الشام، فخرج ابن الأثير من مصر مستترًا خوفًا على نفسه من جماعة كانوا يتربصون

---

(١) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٣ ص٤٠١، ط/ دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩٠، وضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٣٧ ، ٣٩، ومقدمة المثل السائر لأحمد الحوفي وبدوى طبانة ص ٢٧، ٢٨.

(٣) ضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٣٩.

به ، ولحق بالأفضل في الشام وأقام في صحبته من سنة ٥٩٦هـ إلى سنة ٦٠٧هـ ، وكان نجم الأفضل آنذاك آخذًا في الأفول ، فانتقل ابن الأثير إلى خدمة الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يطل مقامه عنده، فعاد إلى الموصل والتحق بخدمة أميرها عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه، ثم بخدمة ولده ناصر الدين محمود، ثم بدر الدين لؤلؤ الذي كان وصيًّا على ناصر الدين محمود، وملكًا للموصل من بعده [1].

وقد ظل ضياء الدين بن الأثير طوال تسعة عشر عامًا – وهي الفترة الأخيرة من حياته – مستقرًّا بالموصل بعد طول أسفاره شرقًا وغربًا ، شمالاً وجنوبًا ، سعيًا وراء الجاه والمجد والغنى ، وفي هذه الفترة تفرغ ابن الأثير للأدب والنقد قراءةً وكتابةً وتعليمًا [2].

وكما حفلت حياة ابن الأثير بالسعي وراء الجاه والمجد، حفلت كذلك بالعلم والأدب ، والتدريس والتصنيف ، فترك لنا ثروة نفيسة من المصنفات الأدبية والنقدية ، من أهمها [3]:

١ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .

---

(١) راجع : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩٠، ٣٩١، والمثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير ص ١٢ ، ١٣، وضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٤١– ٤٤.

(٢) انظر : ضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٤٤.

(٣) انظر في ذكر مصنفاته : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩١، ٣٩٢، ومرآة الجنان لليافعي ج ٤ ص ٩٨، وبغية الوعاة للسيوطي ج ٢ ص ٣١٥، والأعلام للزركلي ج ٨ ص ، ٣٥٤، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٣٠٥، ٣٠٦، والمثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير ، د/ بدوي طبانة ص ١٤.

٢ – الوشي المرقوم في حل المنظوم .

٣ – الاستدراك على المآخذ الكندية من المعاني الطائية .

٤ – الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور .

٥ – كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب .

٦ – المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء .

٧ – رسائل ضياء الدين بن الأثير .

وغير ذلك من المؤلفات، مما يدل على غزارة علمه، وسعة أفقه، وطول باعه في الأدب ونقده.

غير أن أكثر الكتاب يأخذون عليه إفراطه في الاعتداد بنفسه ، وإعجابه الشديد بإنشائه وآرائه واستنتاجاته، وتطاوله على الآخرين ، ومحاولته الغض من شأنهم، في سبيل إظهار تفوقه عليهم وتفرده من بينهم[1].

ومع تأكيدي على أن العالم الكبير ينبغي أن يكون صاحب خلق رفيع، وعلى أن النقد ينبغي أن يكون موضوعيًّا، وحياديًّا، ومنصفًا ، فإنني أشير إلى أمرين :

(١) راجع في ذلك : البيان العربي : دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، د/ بدوي طبانة ص ٢٧١، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، أ. د/ محمد السعدي فرهود ص ٣٠٤، والبلاغة.. تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف ص ٣٢٤، ط/ دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٩٥م، والصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، د/ حفنى محمد شرف ، ق١ ص ٢٧٦، ٢٧٧، ط/ مطبعة الرسالة ، نشر مكتبة الشباب بالمنيرة ، سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

١ – أننا وإن أنكرنا على ابن الأثير إعجابه الشديد بنفسه، وتطاوله على الآخرين؛ فإن ذلك لا يعني انتقاص مكانته العلمية أو النيل منه.

٢ – أننا ينبغي أن نفرق بين خلق الناقد وعلمه، فنعمل على الإفادة من آرائه النقدية الواعية ، ونطرح جانبًا تلك الآراء التي نرى أنها جاءت نتيجة الميل أو الهوى، وهذا من أهم شروط القراءة العصرية التي تعمل على تنقية التراث وإعادة كتابته بما يتناسب وروح العصر الذي نعيش فيه.

وكانت وفاة ضياء الدين بن الأثير سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد ، وكان قد توجه إليها برسالة من صاحب الموصل فوافته منيته بها [١].

## ثانيًا: «المثل السائر» وقيمته العلمية :

اقترنت شهرة ضياء الدين بن الأثير بشهرة كتابه " المثل السائر" وذيوع صيته في الآفاق ، حتى غطى هذا الكتاب على سائر مصنفاته من جهة ، وعلى مكانته وحياته السياسية من جهة أخرى ، فمتى ذكر ضياء الدين بن الأثير ذكر كتابه " المثل السائر "، ومتى ذكر الكتاب ذكر صاحبه[٢].

يقول ابن خلكان : ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله؛ كتابه الذي سماه " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر "، جمع

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩٦.

(٢) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير ، د/ بدوي طبانة ص ١٦.

فيه فأوعب ، ولم يترك شيئًا يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه [1].

وقد نقل اليافعي في " مرآة الجنان " كلام ابن خلكان، وأشاد بالكتاب[2]، وأشار السيوطي وغيره إلى شهرة الكتاب ومكانته[3].

وقد تهيأت لهذا الكتاب عوامل وظروف مواتية جعلت منه كتابًا متميزًا بين مؤلفات ابن الأثير من جهة ، وبين كتب الأدب والنقد من جهة أخرى ، نذكر منها :

١ – أن ابن الأثير ألف هذا الكتاب بعد أن وصل إلى قمة مجده وذروة نضجه الأدبي في أخريات حياته ، فجاء خلاصة تجربة أدبية ونقدية وبلاغية طويلة ، يقول د/ محمد زغلول سلام : ويغلب على الظن أنه آخر ما ألف ابن الأثير من الكتب ، أو ربما سبق كتاب الاستدراك، فقد ذكر في بعض نسخه أنه فرغ من تأليفه يوم السبت الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢هـ [4]، وهو – آنذاك – في الخامسة والستين من عمره.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩١.

(٢) انظر : مرآة الجنان لليافعي ج ٤ ص ٩٨.

(٣) انظر : بغية الوعاة للسيوطي ج ٢ ص ٣١٥، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٣٠٦، ومقدمة المثل السائر لأحمد الحوفي وبدوي طبانة ص١٧، والصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، د/ حفني محمد شرف ق١ ص ٢٧٨.

(٤) ضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٥١.

٢ – أنه كتب هذا الكتاب – على الأرجح – في أوائل القرن السابع الهجري بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها ، واختلاف مناهج البحث، وتعدد الآراء في البيان ، وبروز كثير من النظريات والمؤلفات الأدبية والنقدية [١]، وكان ابن الأثير واسع الثقافة والاطلاع على مصنفات من سبقوه، مما كان له أثر واضح في عرضه ودراسته ومناقشته للقضايا النقدية التي تناولها في هذا الكتاب .

٣ – أن ابن الأثير كان من الكتاب المعدودين في دولة الأيوبيين، وقد هيأت له مكانته الأدبية والسياسية أن يتصل بكبار علماء وكتاب دولة صلاح الدين الأيوبي من أمثال : القاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصفهاني، وغيرهما [٢]، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ الفاضل رسالة أنشأ ابن الأثير مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات [٣]؛ وقد أسهم ذلك في صقل ملكته الأدبية ، ونضوج حسه النقدي.

وبنى ابن الأثير هذا الكتاب على مقدمة ومقالتين :

أما المقدمة : فجاءت في أصول علم البيان الذي يتسع مفهومه عند ابن الأثير ليشمل علوم البلاغة الثلاث : المعاني والبيان والبديع .

وأما المقالتان : فتناولت أولاهما الصناعة اللفظية، وتناولت الأخرى الصناعة المعنوية، وفي ختامها تحدث باستفاضة عن موضوع السرقات

(١) انظر: البيان العربي، د/ بدوى طبانة ص ٢٦٩.

(٢) ضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ص ٣٩.

(٣) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٣٩٦.

الأدبية.

وفي ثنايا ذلك كله يعرض ابن الأثير وجهة نظره في القضايا الأدبية والنقدية، وفي كثير من النصوص التي يعرضها أو يحللها أو يناقشها، مما جعل كتابه أقرب إلى النقد التطبيقي الذي يمتزج فيه الأدب بالنقد منه إلى التقعيد والتنظير الجاف الذي يعني بالقواعد والنظريات أكثر من عنايته بالنص نفسه، وهو ما جعل من هذا الكتاب مجالاً خصبًا، ومفتاحًا لكثير من الدراسات والمقاربات النقدية في العصر الحديث .



# المبحث الثاني

# نظرة ابن الأثير إلى اللفظة المفردة

## أولاً : قيمة اللفظة المفردة عند ابن الأثير

يرى ابن الأثير أن صاحب الصناعة يحتاج إلى ثلاثة أشياء [1]:

١- اختيار الألفاظ المفردة.

٢- نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها .

٣- الغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه، وهو ما يعبر عنه بالمقام .

فأول الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الأدب عنده إنما هو اللفظة المفردة، " وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم " [2].

يقول : الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، وما يكرهه وينفر منه هو القبيح، ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل ويميل إليه ، ويكره صوت الغراب وينفر منه؟ وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس؟ والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة " المزنة " و" الديمة " حسنة يستلذها

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

السمع، و أن لفظة " البعاق " قبيحة يكرهها السمع، وهذه الألفاظ الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد [1].

ولا يقف ابن الأثير في نظرته إلى اللفظة المفردة عند هذا الحد، بل إنه لينحى باللائمة على من ينكرون التفاضل بين الألفاظ، ويصفهم بالجهلة، فيقول : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة، وهذه قبيحة أنكر ذلك ، وقال : كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنًا، ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة " الغصن " ولفظة "العسلوج " ، وبين لفظة " المدامة " ولفظة " الإسفنط" ، وبين لفظة "السيف" ولفظة "الخنشليل " ، وبين لفظة " الأسد " ولفظة " الفدوكس" ، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا يجاوب ، بل يُترك وشأنه، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورةٍ زنجيةٍ سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخَلق، ذات عين محمرة ، وشفة غليظة ، وشعر قطط[2] ، وبين صورة رومية بيضاء البشرة ، مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل [3]، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح[4]، وطرة [5] كأنها ليل على صباح.

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وتلك فلا

(١) المثل السائر ق ١ ص ٩١.

(٢) شعر قطط : شديد التجعد.

(٣) الأسيل من الخدود : الطويل المسترسل.

(٤) أقاح : جمع أُقحوان، وهو نبت طيب الرائحة لونه أبيض تشبه به الأسنان في صفائها.

(٥) الطرة : الناصية.

يبعد أن يكون من سقم النظر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه [1].

وهنا ينبغي أن نؤكد على أمور :

١ - أن اهتمام ابن الأثير باللفظة المفردة لا يأتي على حساب التركيب أو السياق ، فاختيار المفردة ما هو إلا مقدمة لنظمها مع أختها المشاكلة لها ، ووضعها الموضع الذي يتطلبه الموقف والسياق.

٢ - تبني كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين رأي ابن الأثير في نظرته الشاملة للكلمة والسياق معًا [2]، يقول د/ أحمد ياسوف : إن اختيار اللغة يبدأ من اختيار المادة ثم الصيغة ، وهذا مبدأ ابن سنان وابن الأثير، إذ يبدأ جمال اللغة في كتابيهما " سر الفصاحة " و " المثل السائر" بباب طويل السرد والشرح عن جمال المفردة، يليه باب جمال النظم، وتبعهما رجال البلاغة في ذلك [3].

فالكلمة هي اللبنة المستخدمة في البناء اللغوي ، وهي تصافح حاسة السمع قبل أن تطرق باب المشاعر ، ومن هنا كان الاهتمام بجمال صوت الكلمة – أي صورتها الأولى – قديمًا قدم الأدب العربي.

وقد اهتم الشعر الحديث اهتمامًا واضحًا بالموسيقى الداخلية المتوخاة في طيات الكلمات، والأديب البارع من يوظف تلك القيمة

---

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٧٠.

(٢) انظر : جماليات المفردة القرآنية، د/ أحمد ياسوف ص ٤٤ ، وجدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، د/ محمد عبد المطلب ص ٨٤ وما بعدها.

(٣) انظر : جماليات المفردة القرآنية، د/ أحمد ياسوف ص ٢٩.

الصوتية في رسم المعاني ويشخصها للمتلقي [1].

ويؤكد بعض النقاد أن لجرس الألفاظ وقعًا إيجابيًّا كثيرًا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد إحساسه [2]، وينظر بعضهم إلى دلالة الكلمة، فيرى أن دلالة اللفظ لا تقل شأنًا عن إسناده ، يُعَقبُ أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي على كلام عبد القاهر في الحديث عن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [3]، فيقول : إن اختيار لفظ : "البلع " دون الشرب ، وكلمة " أقلعي " دون امنعي ، وفعل "قضى" المبني للمجهول دون نفذ المبني للمجهول أيضًا، و" استوت على الجودي " دون استقرت ، كل ذلك مما يرتفع بالآية إلى الإعجاز ، وهو في صميمه راجع فيما يرجع إليه إلى اللفظ دون الإسناد [4].

ويقول د/ محمد سعيد البوطي : أرأيت أنه لم يقل : جففي ماءك مثلاً ، مع أنه التعبير المتفق مع طبيعة الأرض وشأنها ، وإنما قال : ﴿ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ ليصور لك أن الأرض كما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت

(١) انظر : جماليات المفردة القرآنية ص ٣١.

(٢) انظر : في الميزان الجديد، د/ محمد مندور ص ١٨٦.

(٣) سورة هود : الآية ٤٤.

(٤) انظر : جماليات المفردة القرآنية، د/ أحمد ياسوف ص ٥٠ ، نقلا عن خطوات في التفسير البياني للدكتور/ محمد رجب البيومي ص ٢٢٥، ط/ دار النصر، القاهرة، سنة ١٩٧١م.

مسامها وشقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعًا، فهي لم تنفذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها وإنما بالانقياد لأمر خالقها جل جلاله [1].

وقد نظر ابن الأثير إلى المفردة على أنها جزء لا يتجزأ من النظم ، واعترف بجمال الطرفين معًا [2]، وأعطى كلاً منهما حقه من الدراسة ، وهو ما تؤكده الدراسات الحديثة والعصرية التي تدرس النص بكل مستوياته الإفرادية والتركيبية دون أن يطغى أحدهما على الآخر [3].

## ثانيًا : المستوى الصوتي للفظة المفردة عند ابن الأثير:

اهتم النقاد القدماء بأساسين صوتيين : أحدهما يتصل بالمخرج ، والآخر يتصل بعدد حروف الكلمة ، أي أن أحدهما يتصل بالكيف والآخر يتصل بالكم الصوتي المنطوق [4].

### أ – التلاؤم الصوتي :

أما الجانب الأول الذي يتصل بمخارج الحروف ، فقد عبروا عنه بالتلاؤم ، وهو تعديل الحروف في التأليف ، ويظهر ذلك بسهولة الألفاظ

---

(١) انظر : من روائع القرآن ، د/ محمد سعيد البوطي ص ٢٦٩، ط/ دار الفارابي ، دمشق ، سنة ١٩٧٠م.

(٢) انظر : جماليات المفردة القرآنية ، د/ أحمد ياسوف ص ٥٤.

(٣) راجع في ذلك: جدلية الإفراد والتركيب لمحمد عبد المطلب ص ٨٩ وما بعدها، ص ١٣٣ وما بعدها ، والبلاغة الأسلوبية للمؤلف نفسه ص ٣٠٥ وما بعدها ، ودلالة السياق ص ٢٠٣، ٢٠٥ ، والأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، د/ عبد القادر عبد الجليل ص ٢١١ وما بعدها ، نشر دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٤) انظر : جدلية الإفراد والتركيب لمحمد عبد المطلب ص ٨٩.

على اللسان ، وحسنها في الأسماع ، وتقبلها في الطباع [1].

فإن لم تكن الألفاظ على هذه الصفة دخلت في باب التنافر ، غير أنهم اختلفوا في الجهة التي يأتي منها التنافر إلى اللفظة المفردة أو الألفاظ المركبة ، "فالرماني" ينقل عن الخليل بن أحمد أن مرد هذا التنافر هو البعد الشديد أو القرب الشديد لمخارج الحروف ، " وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال " [2].

ثم جاء ابن سنان الخفاجي فاشترط في اللفظة أن تكون مؤلفة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة ذلك عنده " هي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ، لقرب ما بينه وبين الأصفر ، وبعد ما بينه وبين الأسود "[3].

ثم جاء ابن الأثير فاحتكم في ذلك إلى الذوق السليم ، فهو يرى أن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح، وأن قاعدة ابن سنان في اعتماد تباعد المخارج شرطًا من

---

(١) انظر : النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٩٤-٩٦.

(٢) المرجع السابق ص ٩٦.

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٦٤، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

شروط فصاحة الكلمة قد شذ عنها شواذ كثيرة، لأنه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق، وقد يأتي من المتباعد المخارج شيء قبيح [1].

يقول : ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك، وتسمى ثلاثتها " الشجرية " ، وإذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسنًا رائقًا ، فإن قيل : " جيش " كانت لفظة محمودة ، أو قدمت الشين على الجيم فقيل: " شجي " كانت أيضًا لفظة محمودة ، ومما هو أقرب مخرجًا من ذلك الباء والميم والفاء وثلاثتها من الشفة ، وتسمى " الشفهية " ، فإذا نظم منها شيء من الألفاظ كان جميلاً حسنًا، كقولنا : " فم " فهذه اللفظة من حرفين هما : الفاء والميم ، وكقولنا : ذقته " بفمي " ، وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه .

وقد يكون القبح مع التباعد، فمن ذلك أنه يقال : " ملع " إذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد، ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة في الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة.

وهنا نكتة غريبة ، وهو أنّا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت "علم" وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد على حسنها .

وما ندري كيف صار القبح حسنًا ، لأنه لم يتغير من مخارجها شيء ،

(١) المثل السائر ق١ ص ١٧٣، ١٧٤.

وذلك أن اللام لم تزل وسطًا، والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ، ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في " ملع " و " علم " [(١)].

وما ذهب إليه ابن الأثير من الاعتماد على الذوق تابعه فيه العلوي في كتابه " الطراز " ، فأكد أن التنافر لا يرجع إلى تقارب مخارج الحروف أو تباعدها كما زعم ابن سنان وغيره ، إنما مرجعه هو الذوق السليم والطبع المستقيم، ونقل أكثر كلام ابن الأثير في ذلك [(٢)].

ثم جاء الشيخ عبد المتعال الصعيدي فتابع العلوي في الانتصار لابن الأثير والرد على ابن سنان، لكنه لم يطلق العنان للذوق ، فدعا إلى الإفادة من ضوابط علم اللغة والاستئناس بها لتكون معيارًا واضحًا أمام الذوق السليم، يقول : ذهب ابن الأثير إلى أن المعول في ذلك على الذوق الصحيح، فما يعده ثقيلاً عسر النطق فهو متنافر، سواء أكان ذلك من قرب مخارج الحروف أم من بعدها أم من غيرهما، وذكر ابن سنان أن قرب المخارج يكون سببًا في قبح اللفظ ، وبعدها يكون سببًا في حسنه، وذلك غير صحيح ، لأن الكلمتين قد تتركبان من حروف واحدة وتكون إحداهما ثقيلة دون الأخرى، ومع ذلك لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها

---

(١) المثل السائر ق١ ص ١٧٣ ، ١٧٤.

(٢) انظر : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي ص ٥٤.

وهيئة تأليفها من الأثر في خفة الكلمة وثقلها [1]، وإن كان المرجع في النهاية إلى حكم الذوق السليم.

ومع وجاهة ما ذهب إليه ابن الأثير فإننا ينبغي أن ننظر بعين الاعتبار إلى رأي ابن سنان وقواعده العلمية، وأن نجعل منها معيارًا إرشاديًّا أمام الذوق، وإن كنا لا نفرض هذا المعيار على الذوق، وهو ما يؤكده أحد الباحثين المعاصرين بقوله: إن النقد الحديث يعترف بشكل جزئي بنظرة ابن سنان ، إلا أنه يقدم مقياس الذوق السمعي كما هو الحال عند ابن الأثير [2].

## ب – الكم الصوتي :

وهو ما يتصل بعدد حروف الكلمة ، فقد تعقب ابن الأثير ابن سنان فيما اشترطه لفصاحة الكلمة من أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف، وأن طول الكلمة قد يكون أحد أسباب قبحها وتنافرها، ككلمة " سويداواتها " في قول المتنبي [3]:

إن الكرام بلا كرام منهم    مثل القلوب بلا سُوَيداواتها

يقول ابن الأثير : وليس الأمر كما ذكر ابن سنان ، فإن قبح اللفظة لم يكن بسبب طولها، وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة ، وقد كانت وهي مفردة حسنة، فلما جمعت قبحت ، لا بسبب الطول.

---

(١) انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ج ١ ص١٢.

(٢) انظر : جماليات المفردة القرآنية ، د/ أحمد ياسوف ص ١٧٨، ١٧٩.

(٣) انظر : سر الفصاحة لابن سنان ص ٨٨.

والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال، وهي مع ذلك حسنة رائقة، كقوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [2]، ولو كان الطول مما يوجب قبحًا لقبحت هاتان اللفظتان ، في حين أنك تجد كلمة " صهصلق " وكلمة "جحمرش" ثقيلتين قبيحتين، وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين لقصرهما واللفظتان الواردتان في القرآن الكريم قبيحتين لطولهما ، وأنت ترى الأمر بالضد مما ذكره [3].

فليست العبرة بطول الكلمة أو قصرها، وإنما بنظم تأليف الحروف بعضها مع بعض ، فيجب تجنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة أم قصيرة ، ومثال ذلك قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المداري في مثنى ومرسل فلفظة "مستشزرات" مما يقبح استعمالها، لأنها تثقل على اللسان، ويشق النطق بها، والأمر ليس متعلقًا بطولها، لأننا لو قلنا: " مستنكرات" أو "مستنفرات" لما كان في هاتين اللفظتين ثقل ولا كراهة، وهما في وزنها وعدد حروفها.

وليس الأمر كذلك فحسب، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء، وقلنا : "مستشزر" ، لكان ذلك ثقيلاً ، وسببه أن الشين قبلها تاء وبعدها زاي، فثقل

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٧.

(٢) سورة النور : الآية ٥٥.

(٣) المثل السائر ق١ ص ٢٠٤، ٢٠٥.

النطق بها، وإلا فلو جعلنا عوضًا من الزاي راء ، ومن الراء فاء، فقلنا: "مستشرق" لزال ذلك الثقل[1].

وما ذهب إليه ابن الأثير في هذا الشأن يؤيده كثير من النقاد المحدثين، حيث يقرر بعضهم أن العبرة ليست في كثرة الحروف، بل في نوعية هذه الحروف [2]، ويؤكد بعضهم أن الطول – في حد ذاته –لا يستوجب ثقلاً، بدليل مجيء كثير من الألفاظ الكثيرة الحروف في النماذج الأدبية الجيدة، بل مجيئها في القرآن الكريم أيضًا، ولا نستشعر في بنيتها ثقلاً[3].

وإني لأميل إلى ما ذهب إليه ابن الأثير من أن الأمر مرده في النهاية إلى الذوق السليم، وأن الطول وحده ليس مدعاة للقبح أو الثقل ، غير أنني أؤكد أن طول الكلمة يمكن أن يكون مؤشرًا أمام الذوق ينبغي النظر إليه بعين الاعتبار عند دراسة فصاحة الكلمة.

## ثالثًا : المستوى الدلالي للفظة المفردة عند ابن الأثير

ويتصل هذا المستوى بقدرة المبدع على انتقاء واختيار ألفاظه على أساس دلالتها التي تمتد عند التركيب إلى غيرها من الدلالات ؛ لتصنع الإطار الدلالي المركب [4]، فالنظرة إلى المفردة هنا لا تكون من جهة

---

(١) المثل السائر ق١ ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) انظر : جماليات المفردة القرآنية ، د/ أحمد ياسوف١٨٩.

(٣) انظر: جدلية الإفراد والتركيب لمحمد عبد المطلب ص ٩٧.

(٤) انظر : جدلية الإفراد والتركيب ص ١٠١.

بنيتها الصوتية، إنما تكون من جهة ما تحمله من دلالة أو دلالات.

وقد حاول النقاد القدامى رصد بعض الجوانب التي تتصل بالبعد الدلالي للكلمة، فاشترطوا ألا تكون الكلمة وحشية، وألا تكون عامية مبتذلة، ونظر بعضهم إلى تطورها الدلالي بعين الاعتبار ، وكان لابن الأثير رؤية واضحة في هذه الجوانب .

## رأي ابن الأثير في الوحشي :

يقول : وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنوه المستقبح من الألفاظ، وليس كذلك، بل الوحشي ينقسم قسمين: أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح.

وذلك أنه منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال، وليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحًا ، بل أن يكون نافرًا لا يألف الإنس ، فتارة يكون حسنًا، وتارة يكون قبيحًا [١].

وقسم ابن الأثير اللفظ ثلاثة أقسام [٢]:

١ - ما تداول استعماله الأول والآخر، وهذا هو المألوف المتداول، وهو أحسن الألفاظ ؛ لأنه لم يكن مألوفًا متداولاً إلا لمكان حسنه، وهذا لا ينعت بوحشية أو حوشية.

---

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢) المصدر السابق ق١ ص ١٧٦-١٨٠.

٢ – ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب الأوائل؛ لأنه لم يكن عندهم وحشيًّا، وهو عندنا وحشي.

٣ – ما يقل استعماله، ويكون ثقيلاً على السمع، كريهًا على الذوق، ويسمى " الوحشي الغليظ " ، ويسمى أيضًا " المتوعر " ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلاً.

ومن هذا " الوحشي الغليظ " قول تأبط شرًا [١]:

يَظَلُّ بَمَوْمَاة ويُمْسِى بِغَيْرِه        جَحَيشًا ويَعرَورَى ظُهورَ المَهالِكَ[٢]

فإن لفظة " جحيش " من الألفاظ المنكرة القبيحة، وهي بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة رائقة، ولو وضعت في هذا البيت موضع " جحيش " لما اختل شيء من وزنه.

وأغلظ من هذا قول المتنبي[٣]:

جَفَخَت – وهم لا يجفخون بها – بِهِم
شيم على الحسب الأَغَرِّ دلائلُ [٤]

فإن لفظة " جفخ " مرة الطعم ، وإذا مرت على السمع اقشعر منها، ومعناها، فخرت ، يقال : جفخ فلان إذا فخر، ولو استعمل أبو الطيب

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٨١.
(٢) الموماة : المفازة التي لا ماء فيها، والجحيش : المنفرد ، يعرورى: يرتكب المهالك ، والمعنى أنه كثير الجولان في الأرض، يخاطر بنفسه لشدة جرأته وحماسته.
(٣) المثل السائر ق ١١ص١٨٢.
(٤) جفخت : فخرت وتكبرت.

"فخرت" مكان " جفخت" لاستقام وزن البيت ، وحظي في استعماله بالأحسن [1].

فقد راعى ابن الأثير في نظرته إلى الغريب ثلاثة أمور لها اعتبارها في ميدان النقد الأدبي، هي :

**١ - النسبية الزمانية:**

وذلك في حديثه عن القسم الثاني من الألفاظ ، وهو ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، فإنه لم يكن غريبًا ولا وحشيًّا عندهم، وإنما صار غريبًا وحشيًّا عندنا ؛ لبعد زماننا عن زمانهم، ولأثر التحضر في انتقاء اللغة، واختيار الألفاظ، واندثار الغريب الوحشي منها[2].

وهذا الملمح قد تنبه إليه النقاد القدماء وتابعهم فيه كثير من النقاد المحدثين ، يقول القاضي الجرجاني: فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف؛ اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، فإذا رام أحد المتأخرين الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يريد إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع، ومع التكلف المقت، وللنفس مع التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ق١ ص ١٧٦.

**الحلاوة، وذهاب الرونق، وإخلاق الديباجة [1].**

**ويقول ابن رشيق : ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند أهله[2]، وينقل عن أبى محمد الحسن ابن علي بن وكيع قوله : ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامِهِ والقِفار، وذِكر الوحوش والحشرات .. ما رويت[3].**

**وقد أكد بعض النقاد المحدثين على ضرورة النظر إلى زمن النص بعين الاعتبار، والحكم عليه في إطار عصره وبيئته [4]، وجعل بعضهم الزمان أحد قوانين الأدب الثلاثة التي تحكم عملية الإبداع ، وهي الزمان، والمكان ، والجنس[5].**

**٢ – النسبية المكانية :**

**فالغريب كما يختلف باختلاف الزمان يختلف باختلاف المكان، فالبدوي لا يلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ، وإنما يلام على استعمال الغريب القبيح، وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين**

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ١٨، ١٩ بتصرف يسير.

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٩٣.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٩٢.

(٤) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص٣٥، وكتابه: المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق ص ٣ ، ط/ المؤلف، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

(٥) انظر : في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ص ٣٨، ط/ دار المعارف، سنة ١٩٨٨م.

معًا، وهو في أحدهما أشد ملامة من الآخر [1].

وقد تأثر ابن الأثير في تفرقته بين البدوي والحضري في استخدام الوحشي من الألفاظ بقول الجاحظ: لا ينبغي أن يكون الكلام غريبًا وحشيًّا إلا أن يكون المتكلم به بدويًّا أعرابيًّا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس[2].

غير أن ابن الأثير لا يطلق القول بقبول هذا الوحشي من البدوي، إنما يقبل منه استخدام الوحشي الحسن دون الوحشي الغليظ أو المتوعر.

وقد نظر كثير من النقاد المحدثين إلى البيئة المكانية بعين الاعتبار فأكدوا أن الأديب يرتبط بمكانه وزمانه ارتباطًا يفرض عليه – أراد أم لم يرد- اللصوق النفسي بهما، ويجعله إذا انفصل عنهما أو انحاز إلى غيرهما غريبًا لدى نفسه وغريبًا عند من يتذوق شعره[3].

ومن ثمة فعلى الناقد أن يدخل الأوضاع الزمانية والمكانية في اعتباره عند الحكم على النص [4].

### ٣ – حسن اللفظة أو قبحها:

لم يقتصر ابن الأثير على مراعاة البعدين الزماني والمكاني، وإنما

---

(١) انظر : المثل السائر ق ١ ص ١٨٢، ١٩٧.

(٢) انظر : البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٤.

(٣) انظر : نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٣٥.

(٤) انظر : اتجاهات النقد الأدبي العربي ، أ. د/ محمد السعدي فرهود ص ١٩٩، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، وفي النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ص ٣٥.

أضاف إليهما بعدًا هامًّا وهو حسن اللفظة أو قبحها بالنظر إلى خفتها أو ثقلها، واعتد في ذلك بالذوق السليم.

وقد دعا ابن الأثير الناظم إلى تجنب الحروف التي يضيق بها الكلام في بناء قوافيه كـ " الثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين " ، حيث يضطره ذلك إلى الإتيان بالبشع الكريه الذي يمجه السمع، كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها [1].

قِفْ بالطُّلول الدارِسَات عُلاثا     أمسَت حِبال قَطِينِهن رِثاثا[2]

قال ابن المستوفي : وكيف رويت لفظة علاثًا فهي رديئة ، ولو أن علاثة غلامه على الحقيقة لوجب عليه تجنب هذه اللفظة وإطراحها لغرابتها[3].

ومنه شينية المتنبي التي مطلعها [4]:

مبيتي من دِمَشق على فِراشِ     حَشاهُ لي بِحَرِّ حَشايَ حاشِ

لَقى لَيلٍ كعينِ الظَبــيِ لَونًا     وَهَمٍّ كالحُمَيَّا في المُشاشِ[5]

وقد راجعت قصيدتي أبي تمام والمتنبي المذكورتين وغيرهما من

---

(١) المثل السائر ق١ ص ١٩٥، والقصيدة في ديوان أبي تمام ج ١ ص ٣١١، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام ، ط/ دار المعارف ، سنة١٩٧٦م.

(٢) علاثا : ترخيم علاثة ، والقطين : أهل الدار ، الرثاث : جمع رث ، وهو الخلق البالي.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، ج ١ ص ٣١٢ ( هامش الصفحة ).

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي ص ٢٢٨ ، تحقيق: محمد عبده عزام ، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة ١٩٩٥م.

(٥) اللقا : هو الرجل الزمن الذي لا حراك به.

القصائد التي تبنى على هذه الحروف ، فرأيت أنها كثيرًا ما تضطر الشاعر إلى استخدام ألفاظ مستكرهة ، كقول أبي تمام في ثائيته [1]:

لولا اعتمادُكَ كنتُ ذا مَندوحَة
عــن بَرقَعيـــدَ وأرضِ باعيناثا[2]

وقوله في قصيدة جيمية [3]:

ما سَرَّ قومَكَ أن تَبقى لَهُم أبَدًا
وأن غَيرَكَ كانَ استنزَلَ الكَذَجَا[4]

فما اضطر أبا تمام إلى اجتلاب هذه الألفاظ إلا اعتماده رَوِيًّا من الحروف التي يضيق بها الكلام في بناء القوافي ، وبخاصة في القصائد الطوال.

## نظرته إلى المبتذل من الألفاظ:

يشترط ابن الأثير لفصاحة الكلمة ألا تكون مبتذلة بين العامة، ويقسم المبتذل قسمين [5]:

**القسم الأول :** ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة، فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر، وهو ضربان :

(١) ديوانه ج ١ ص ٣٢١.
(٢) برقعيد وباعيناث : موضعان بالجزيرة.
(٣) ديوانه ج ١ ص ٣٣٠.
(٤) الكذج : اسم حصن بأذربيجان ، انظر : معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٤٤٢.
(٥) المثل السائر ق١ ص ١٩٦-٢٠١.

**الضرب الأول : ما يكره ذكره ، كقول أبى الطيب :**

**أذاق الغَواني حُسنُهُ ما أَذَقنني**

**وعَفَّ فجازاهُنَّ عني عَلَى الصرم**

**فإن معنى لفظة " الصرم " في وضع اللغة هو " القطع " ، يقال : صرمه إذا قطعه، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره.**

**ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها، على أن المكروه هنا هو استخدام هذه اللفظة على صيغة الاسمية كما جاءت في البيت، أما إذا استخدمت على صيغة الفعل كقولنا: "صرمه" و"صرمته" فإنها لا تكون كريهة ؛ لأن استعمال العامة لا يدخل في ذلك [1].**

**الضرب الثاني : هو ما وضع في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره، كوصفهم الإنسان بالظرف إذا كان دمث الأخلاق، حسن الصورة أو اللباس، أو ما هذا سبيله.**

**والظرف في أصل اللغة مختص بالنطق، وقد قيل في صفات خلق الإنسان : الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والرشاقة في القد ، والظرف في اللسان.**

**والخطأ في ذلك لا يوجب في اللفظة قبحًا ، لكنه ينم عن جهل**

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٩٧.

بمعرفة أصلها في وضع اللغة [1].

**القسم الثاني** : ما ابتذلته العامة بكثرة تداوله، لكنها لم تغيره عن أصل وضعه.

يقول : وفي هذا القسم عندي نظر؛ لأنه إن كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة فإن من الكثير المتداول بينهم ألفاظًا فصيحة كـ " السماء، والأرض ، والماء ، والنار ، والحجر ، والطين ، وأشباه ذلك " ، وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وجاءت في كلام الفصحاء نظمًا ونثرًا.

والذي ترجح في نظري أن المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة ، سواء تداولتها العامة أم الخاصة ، كلفظة "اللقالق" في قول المتنبي[2]:

وَمَلمـــومَةٌ سَيفيَّـــة رَبَعِيَّةٌ
يَصيحُ الحَصى فيها صِياحَ اللقَالِقِ[3]

وكلمة " الشطار " في قول أبي نواس :

ومُلحَّةٍ بالعــذلِ تحســب أنني
للعــذلِ أتــركُ صُحــبَةَ الشطّار

وقد استعمل ألفاظ : " الشاطر " ، و" الشاطرة " ، و" الشطار " و" الشطارة"

---

(١) المثل السائر ق١ ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ق١ ص١٩٩، والبيت في ديوان أبي الطيب ص ٣٨٩.

(٣) الملمومة : الكتيبة المجتمعة، وسيفية : منسوبة إلى سيف الدولة ، وربعية : منسوبة إلى ربيعة قبيلة سيف الدولة، واللقالق: جمع لقلق ، وهو طائر كبير يسكن العمران في أرض العراق.

كثيرًا ، وهي من الألفاظ التي ابتذلتها العامة حتى سئمت من ابتذالها [1].

ونلاحظ الآتي :

١ - أن ابن الأثير يراعي التطور الدلالي للكلمة ، ويؤكد بقوة على قضية النسبية في الحكم على النصوص " بحيث يحتاج الحكم بسقوط اللفظة لعاميتها إلى نوع من التتبع لمجالات الاستعمال ذاته مكانيًّا وزمانيًّا" [2].

٢ - أن ابن الأثير قد نظر بعين الاعتبار إلى ما قرره من سبقه من النقاد من ضرورة ألا يكون اللفظ عاميًّا ولا ساقطًا سوقيًّا، ولا غريبًا وحشيًّا، وهو ما نقله ابن رشيق عن الجاحظ [3]، وأسامة بن منقذ عن أبي هلال [4]، وفصله وبسط القول فيه ابن سنان الخفاجي[5]، يقول أسامة نقلا عن أبي هلال: الكلام ثلاثة أصناف : عامي ، وخاصي ، ووحشي ؛ فالعامي لا يستعمل لركاكة فيه ، والوحشي لا يستعمل لجهامته، والخاصي يستعمل لفصاحته وملاحته ، فالعامي مثل قولك: عدلا جمل ، والوحشي مثل قولك: صنو جرثومة ، والخاصي مثل قولك : فرسا رهان [6].

(١) المثل السائر ق١ ص ٢٠١.

(٢) جدلية الإفراد والتركيب لمحمد عبد المطلب ص ١١٥.

(٣) انظر : العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٣، والبيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٤٤.

(٤) انظر : البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص ١٦٢، تحقيق: د/ أحمد أحمد بدوي، ود/ حامد عبد المجيد ، ط/ مصطفى الحلبي ، سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٦٦، ١٦٧.

(٥) انظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٦٦ ، ص ٧٣.

(٦) انظر : البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص ١٦٢.

وإن كان لهؤلاء فضل السبق فيحسب لابن الأثير نظرته إلى التطور الدلالي للكلمة، وتأكيده على مراعاة البعد الزماني والمكاني لاستخدام الألفاظ ، وتتبعها في بيئاتها.



# المبحث الثالث

# نظرة ابن الأثير إلى الجملة والسياق

مع عناية ابن الأثير باللفظة المفردة فإنه يؤكد " أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها، لأن التركيب أعسر وأشق "(١).

ويقول : ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه؟ وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب (٢).

ويقتفي ابن الأثير في ذلك أثر عبد القاهر في النظم، وينقل أكثر كلامه حول قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣). يقول : وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ...﴾ الآية، أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية

(١) المثل السائر ق١ ص ١٦٦، ويعلق د/ عبد الحكيم راضي على نص ابن الأثير بقوله : وما صرح به ابن الأثير هنا أمر تتابع عليه كثير من النقاد والبلاغيين. انظر كتابه: نظرية اللغة في النقد الأدبي ص ١٥٦.

(٢) المثل السائر ق ١ ص ١٦٢.

(٣) سورة هود : الآية ٤٤.

الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها..

فإن ارتبت في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية ؟

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها[1].

ويؤكد ابن الأثير أن تركيب الألفاظ يحدث عنه من فوائد التأليف والنظم ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة.

ومثال ذلك كمن أخذ لآلئ ليست من ذوات القيم الغالية فألفها، وأحسن الوضع في تأليفها؛ فخيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة.

وفي عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها؛ فإنه يضع من حسنها.

ويعقب على ذلك بقوله: وهذا موضع شريف ينبغي الالتفات إليه

(١) المثل السائر ق ١ ص ١٦٦، وانظر : دلائل الإعجاز ص ٩١، ٩٢ ، وإن كان ابن الأثير يدعي الفضل والسبق في ذلك لنفسه، فيقول : " وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة وإمعان نظر، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي ". المثل السائر ق١ ص ١٦٧، وهو ادعاء في غير محله.

والعناية به [1].

وقد عمل ابن الأثير على تأكيد ذلك من خلال نقده التطبيقي وتحليله لكثير من النصوص القرآنية وغيرها من منظوم الكلام ومنثوره [2].

## أولاً : نظرته إلى الجملة:

نظر ابن الأثير إلى الجملة على أنها جزء لا يتجزأ من السياق، وأن ما يعتريها من ظواهر أسلوبية إنما يأتي وفق ما يتطلبه هذا السياق.

على أن هذه الظواهر الأسلوبية أو السياقية التي درسها البلاغيون القدماء – من أمثال عبد القاهر وابن الأثير وغير هما – في مباحث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والإيجاز والإطناب ، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، وغيرها- قد صارت من أهم محاور الدراسات الأسلوبية الحديثة[3]، بل إن بعض النقاد المعاصرين يرى أن جهود البلاغيين القدماء – وعلى رأسهم عبد القاهر وابن الأثير – في هذا المجال يمكن وضعها مع أحدث ما تناولته الدراسات الأسلوبية المعاصرة [4].

وفيما يلي نماذج لنظرته إلى بعض ما يتعلق بالجملة من ظواهر أسلوبية :

---

(١) المصدر السابق ق١ ص ٢٠٩.

(٢) راجع : المثل السائر ق ١ ص ١٦٦وما بعدها ، ق٢ ص ١٣٥ وما بعدها.

(٣) انظر : الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، د/ عبد القادر عبد الجليل ص ٢٨٢ ،٢٩٢، ٣٤٩، ٣٥٥، والبلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٣١٣ وما بعدها، وجدلية الإفراد والتركيب للمؤلف نفسه ص ١٦٣ وما بعدها.

(٤) انظر : المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي : التطور ، النظرية ، التطبيق ص ٢٢٨.

## أ – سياق التقديم والتأخير :

لم يقف ابن الأثير في تناوله لسياق التقديم والتأخير عند النظرة الجزئية التي تتعلق بتقديم الخبر على المبتدأ ، أو المفعول على الفاعل ونحو ذلك، إنما نظر إلى هذا السياق من زاويتين:

الزاوية الأولى : تختص بدلالة الألفاظ على المعاني ، بحيث لو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى [1].

ومن شواهد هذا القسم قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [2].

يقول : فإنه إنما قال :بَلِ ﴿ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ، ولم يقل : بل اعبد الله ؛ لأن تقدم لفظ الجلالة يفيد اختصاص العبادة بالله وحده دون غيره، ولو قال : بل اعبد لجاز إيقاع الفعل على أي مفعول شاء، وانتفى الاختصاص الذي أفاده تقديم المفعول[3].

الزاوية الأخرى : تختص بدرجة التقدم في الذكر، لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى، كتقديم السبب على المسبب والكثير على القليل ، والأعجب على العجيب [4].

---

(١) المثل السائر ق٢ ص ١٧٢ .
(٢) سورة الزمر : الآيات ٦٤-٦٦.
(٣) المثل السائر ق ٢ ص ١٧٣.
(٤) المصدر السابق ق ٢ ص ١٧٢، ١٨٢-١٨٥ .

فمن تقديم السبب على المسبب قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1]، فإنه إنما قدم العبادة على الاستعانة ؛ لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب، وأسرع لقبول الإجابة ، ولو قال : إياك نستعين وإياك نعبد لكان جائزًا ، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع[2].

ومن تقديم الأعجب على العجيب قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ [3]، فإنه إنما قدم الماشي على بطنه ؛ لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين، إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي، ثم ذكر الماشي على رجلين، وقدمه على الماشي على أربع ؛ لأنه أدل على القدرة أيضًا، حيث كثرت آلات المشي في الأربع[4].

وفي هذه الرؤية الشاملة لسياق التقديم والتأخير يظهر بعد نظر ابن الأثير وعمق ثقافته ، حيث لم يقف في تناوله لهذا السياق عند ما قرره النحاة والبلاغيون من قبله في تقديم المسند على المسند إليه ، وتقديم بعض متعلقات الفعل، ونحو ذلك مما يتصل بقضيتي الإسناد والتعلق، إنما نظر بعين أوسع ورؤية ثاقبة إلى ما يتعلق ببنية النص وارتباط أجزائه ،

(١) سورة الفاتحة : الآية ٥.

(٢) المثل السائر ق ٢ ص ١٨٢.

(٣) سورة النور : جزء من الآية ٤٥.

(٤) المثل السائر ق٢ ص ١٨٣.

وما يتطلبه المعنى أو السياق من تقديم أو تأخير .

ب – سياق الإيجاز :

يذكر في إطار سياق الإيجاز بالحذف حذف المفعول به، كقولهم : فلان يحل ويعقد ، ويبرم وينقض ، ويضر وينفع ، والأصل في ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسك للشيء على الإطلاق(١).

ومن بديع ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢).

ففي هاتين الآيتين حذف المفعول به في أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم، وامرأتين تذودان مواشيهما، وقالتا: لا نسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما؛ لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي، ومن الامرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي، فأما كون المسقي غنمًا أو إبلاً أو غير ذلك فخارج عن الغرض(٣).

وفي ضوء هذا يمكن أن يفسر كثير من فقه المسكوت عنه في القصة

(١) المثل السائر ق ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) سورة القصص : الآيتان ٢٣ – ٢٤.

(٣) المثل السائر ق ٢ ص ٢٣٩، والمحذوف هنا هو المسكوت عنه في لغة النقد الحداثي وما بعد الحداثي. انظر: المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص ٣٧٦.

القرآنية ، حيث يركز النص القرآني على ما له قيمة في مجرى القصة، أما ما لا يخدم الغرض ، وما يمكن أن يكون حشوًا فلا وجود له في النص القرآني، وفي هذا ما يرد على كثير من التساؤلات التي تشغل أذهان العامة في بعض ما يتصل بالقصص القرآني [1].

ج – سياق الإطناب :

في القسم الثاني من الإطناب المختص بالجمل يذكر ابن الأثير ضربًا من الإطناب يسميه النفي والإثبات .

وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي ، ثم يذكر على سبيل الإثبات ، أو بالعكس، ولابد أن يكون في أحدهما زيادة ليست في الآخر، والغرض منه تأكيد ذلك المعنى المقصود[2]، وعليه ورد قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(١) من ذلك على سبيل المثال قولهم: أين ذهب الغلام الذي كان مع موسى عليه السلام بعد أن التقى موسى بالخضر؟ وقد عبر النص القرآني بعد التقاء موسى بالخضر عليه السلام بلفظ المثنى دون اعتبار لوجود الغلام أو عدم وجوده؛ لأن دوره قد انتهى ، وأصبح أمره خارجا عن الغرض والسياق ، وهو ما يعبر عنه بعض النقاد المعاصرين بـ " جدلية الحضور والغياب في النص الأدبي" ، حيث يقوم النص على نوعين من العلاقات: أحدهما : بين العناصر الحاضرة ، والآخر : بينها وبين العناصر الغائبة، ولكل عنصر من هذه العناصر دوره في بنية النص. انظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي، د/ صلاح فضل ص ٢٠٤.

(٢) المثل السائر ق ٢ ص ٢٨٧.

يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [1]، فقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من هذا الضرب ، ألا ترى أنه نفي العلم عن الناس بما خفي عنهم من تحقيق وعده، ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا؟ فكأنهم علموا وما علموا، إذ العلم بظاهر الأمور ليس بعلم، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور[2].

## ثانيًا : نظرته إلى السياق :

لم ينظر ابن الأثير إلى اللفظة المفردة ولا إلى الجملة بمعزل عن سياقهما، فقد نظر إلى السياق بعين الاعتبار سواء في تنظيره أم في تطبيقاته ، يقول : " ومن عجيب ذلك [3] أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره[4].

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [5]، وقوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [6].

---

(١) سورة الروم : الآيات ١- ٧.
(٢) انظر : المثل السائر ق ٢ ص ٢٨٨.
(٣) أي : ومن عجيب أسرار النظم ووضع كل لفظة في موضعها اللائق بها.
(٤) المثل السائر ق ١ ص ١٦٤.
(٥) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٤.
(٦) سورة آل عمران : جزء من الآية ٣٥.

فاستعمل ( الجوف ) في الأولى و( البطن) في الثانية، ولم يستعمل (الجوف ) موضع ( البطن ) ولا ( البطن) موضع ( الجوف )، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضًا ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل ؟[1].

بل إنك ترى اللفظة الواحدة تحسن في موضع ولا تحسن في غيره، ومن ذلك كلمة " تؤذي"، وهي لفظة واحدة جاءت في آية من القرآن الكريم وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن الكريم جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة.

أما الآية فهي قوله تعالى :﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [2].

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي [3]:

تلذُّ له المروءة وهي تُؤذي ومن يعشق يلذُّ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة إلا أن لفظة " تؤذي " قد جاءت فيه وفي الآية ، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها في تركيب الآية [4].

وفي تناوله ما يتعلق بالجملة من تقديم أو تأخير، أو فصل أو وصل ،

(١) المثل السائر ق١ ص ١٦٤ .

(٢) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٥٣.

(٣) المثل السائر ق١ ص ١٦٧، وهو في ديوانه ص ٩٤.

(٤) المصدر السابق ق١ص ١٦٧.

أو إيجاز أو إطناب، وغير ذلك ، لم يدرس ابن الأثير النص بمعزل عن سياقه، إنما نظر بعين الاعتبار إلى هذا السياق، ففي إطار حديثه عن اقتضاء المقام للتقديم أو التأخير يقول : قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١)، ثم قال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ (٢)، فقدم أهل النار في الذكر على أهل الجنة ؛ لأنه لما كان الكلام مسوقًا في ذكر التخويف والتحذير، وجاء عقب قصص الأولين، وما فعل الله تعالى بهم من التعذيب والتدمير- كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى، وهو ذكر أهل النار، فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة(٣).

وفي مجال اقتضاء السياق للإطناب دون الإيجاز في قوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (٤).

(١) سورة هود : الآيتان ١٠٣-١٠٦.
(٢) سورة هود : جزء من الآية ١٠٨.
(٣) المثل السائر ق٢ ص ١٨٤.
(٤) سورة الأحزاب : الآية ٤.

يقول ابن الأثير: ألا ترى أن مساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي ، ويقول لمملوكه : يا بني ، فضرب الله لذلك مثالاً، فقال: كيف تكون الزوجة أمًّا؟ وكيف يكون المملوك ابنًا؟ والجمع بين الزوجية والأمومة، وبين العبودية والبنوة في حالة واحدة- كالجمع بين القلبين في الجوف، وهذا تعظيم لما قالوه، وإنكار له، ولما كان الكلام في حال الإنكار والتعظيم أتى بذكر" الجوف" ، وإلا فقد علم أن القلب لا يكون إلا في " الجوف" .

والتمثيل هنا يصح بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ وهو تام، لكن في ذكر ( الجوف ) زيادة في الإنكار عليهم، وفيه – أيضًا- زيادة تصوير للمعنى المقصود ؛ لأنه إذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفًا يشتمل على قلبين، فكان ذلك أسرع إلى إنكاره[1].

وقد تجاوز ابن الأثير مواقع الألفاظ من السبك، وبناء الجملة، إلى نظرة أعم وأشمل لسياق النص، وذلك حيث يؤكد أن الكلام قد يحتمل أكثر من معنى، ولا يتضح المعنى المراد إلا بالنظر إلى معنى تقدمه أو إلى معنى تأخر عنه، ومن ذلك قول شقران مولى بني سلامان[2]:

ولو كنت مولى قيس عيلان لم تجد
عليَّ لإنسـان من الناس درهما

(١) المثل السائر ق٢ ص ٢٨٣.

(٢) هو شقران مولى بني سلامان بن سعد بن هديم، من شعراء الحماسة، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

ولكـنني مـــولى قضاعـة كلهـا
فلسـت أُبالي أن أدين وتغرمـا

يقول : فإذا نظرنا إلى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحًا وذمًّا، أي أنهم كانوا يغنونه بعطائهم أن يدين، أو أنه كان يخاف الدين حذر ألا يقوموا عنه بوفائه، لكن البيت الثاني حقق أن الأول ذم وليس مدحًا، فهذا المعنى لا يتحقق فهمه إلا بآخره[1].

ومن ذلك قول المتنبي في كافور [2]:

فإن نلتُ ما أملت منك فربما
شربتُ بماء يعجز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحًا وذمًّا، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون إلى الذم أقرب؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت مفتتح بـ ( إن ) الشرطية، وقد أجيبت بلفظ " رب" التي معناها التقليل، أي لست من نوالك على يقين ، فإن نلته وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده ، وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله[3].

فقد نظر ابن الأثير إلى سياق القصيدة، وفسر البيت في ضوء هذا

(١) المثل السائر ق ٢ ص ٧٧.
(٢) المصدر السابق ق ١ ص ٦٥، وهو في ديوان المتنبي ص ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٦٥.

السياق، والقصيدة في مدح كافور، وما سبق هذا البيت من أبيات يدور في فلك هذا المديح، وذلك حيث يقول المتنبي [1] :

وأمضى سلاح قلد المرء نفسه
رجاء أبي المسك الكريم وقصده[2].
فمن ماله مال الكبير ونفسه
ومن ماله در الصغير ومهده

وحيث يقول في القصيدة نفسها [3]:

وألقى الفم الضحاك أعلم أنه
قريب بذي الكف المفداة عهده
فزارك مني من إليك اشتياقه
وفي الناس إلا فيك وحدك زهده

ورغم اعتراضات ابن أبي الحديد الكثيرة على ابن الأثير فإنه قد تابعه في فهم هذا البيت بأنه ليس مترددًا بين المدح والذم كما توهمه قوم؛ لأن سياق الشعر يقتضي أنه أراد المدح لا الذم[4].

(١) ديوان أبي الطيب ص ٤٥١.
(٢) أبو المسك : كنية كافور الإخشيدي.
(٣) ديوان أبي الطيب ص ٤٥٣
(٤) انظر: الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد ص ٥٩، تحقيق د/ أحمد الحوفي ، ود/ بدوي طبانة، ط/ نهضة مصر ( طبعة ملحقة بالمثل السائر لابن الأثير ، ق٤ ) ، وإن كان بعض الكتاب يخالف في فهم هذا البيت ويرى أن المتنبي كان يمكر بكافور، فيعمد إلى إحداث توجيه غريب في قصائده وأبياته، بحيث تحتمل المدح والذم، وتحمل ما في نفسه من مرارة تجاه

وقد أثنى بعض النقاد المعاصرين على دراسة ابن الأثير للجملة في إطار النص، وعلى نظرته الشمولية لبعض القضايا الأسلوبية أو السياقية، كدراسته لسياق الحذف في إطار سياق أكبر هو سياق الإيجاز ، وسياق الذكر في إطار سياق أعم هو الإطناب، وعدوا ذلك محاولة جادة يمكن تنميتها في مجال البحث البلاغي الحديث، وربطه بالدراسة الأسلوبية، بحيث يصبح الكل له الأهمية الأولى أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء، وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء، ولا توقف تأثيره في السياق [1].

بل إن نظرة كثير من النقاد المعاصرين إلى السياق لا تكاد تخرج عن فهم ابن الأثير له، يقول محمد عبد المطلب في مستهل حديثه عن السياق: " عندما يعمد المبدع إلى تكوين جملة لغوية يقوم بعمليتين متكاملتين: في الأولى : يجري اختيارًا في مفردات مخزونه اللغوي، وفي الثانية: يجري عملية تنظيم لما تم اختياره، بحيث يتلاءم هذا التنظيم مع النسق الذي يدور فيه الكلام " [2].

---

كافور الذى لم يستجب لطموحه ، فإن الذى يعنينا من إيراد هذا الشاهد إنما هو نظرة ابن الأثير إلى السياق والاعتداد به في فهم النص. انظر : في النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ص١٣٤.

(١) انظر: البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص٣٤٩، ٣٥٠، والمنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر: التطور، النظرية، التطبيق ، لمديحة جابر السايح ص٢٢٨، ٢٢٩ .

(٢) البلاغة والأسلوبية ص ٣٠٥، وانظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية/ د/ عبد القادر عبد الجليل ص ٢١١وما بعدها، وفي البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة د/ سعد مصلوح ص١٧٨،١٧٧، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٣، ودلالة السياق د/ ردة الله بن ردة ابن ضيف الطلحي ص ٢٠٣، ٢٠٥، والمرايا المقعرة ، د/ عبد العزيز حمودة ص ٢٥٤ وما بعدها، وعلم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل ص ١٠٥، ٢٤٤، ٢٥٠.

ويقارب عبد المطلب بين مفهوم العلاقات السياقية عند "دي سوسير" والمقام عند ابن الأثير فيما ذكره ابن الأثير في باب الصناعة اللفظية، حيث تدرج ابن الأثير من الإطار الضيق للعلاقات السياقية إلى الإطار الواسع لمفهوم السياق المتصل بالمقام، والذي يشمل اختيار الألفاظ المفردة، ثم نظمها مع بعضها، ثم الغرض المقصود من الكلام [1].

ويرى أن تناول ابن الأثير لهذه العلاقات السياقية يؤكد إدراكه لمفهوم الامتداد الخطي لسلسلة الكلام، وأهمية التوافق الذي يجب أن يتوفر فيه [2].



(١) البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٣٠٨، ٣٠٩، وانظر: المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر: التطور، النظرية ، التطبيق ص١٨٧- ١٨٩.

(٢) انظر: البلاغة والأسلوبية ص ٣٠٩.

# المبحث الرابع

# رأي ابن الأثير في بعض القضايا النقدية الأخرى

## الذوق الأدبي وأدوات الناقد:

يعد الاعتماد على الذوق والاعتداد به خطًّا واضحًا في " المثل السائر"، وقد أعلن ابن الأثير ذلك صراحة في مواضع متعددة منه، يقول في مقدمته: " واعلم أيها الناظر في كتابي هذا أن مدار علم البيان[1] على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم[2].

ويقول في حديثه عن استعمال صيغ الألفاظ: " ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز، وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم[3].

ويقول: إنا في تأليف الكلام بصدد استعمال الحسن والأحسن، لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز، ومما يجري هذا المجرى قولنا: فعل وافتعل، فإن لكل منهما موضعًا تستعمل فيه، ألا ترى أنك تقول: قعدت إلى فلان أحدثه، ولا تقول: اقتعدت إليه؟ وكذلك تقول: اقتعدت غارب

---

(١) علم البيان هنا يشمل علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، أو بعبارة أخرى هو فن القول وصياغة الكلام.

(٢) المثل السائر ق ١ ص ٣٥.

(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٣٠٠.

الجمل، ولا تقول: قعدت على غارب الجمل؟ وإن جاز ذلك، لكن الأول أحسن، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم[1].

وقد أشرنا فيما سبق إلى مدى اعتداد ابن الأثير بالذوق في قضية تلاؤم الحروف أو تنافرها، وطول الكلمة وأثره في ثقلها[2].

**وهنا أشير إلى أمور :**

أ- أن الذوق الذي ينشده ابن الأثير إنما هو الذوق السليم الذي صقلته الخبرة والتجربة، يقول: " فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعًا، وأهدى سمعًا وبصرًا، وهما يريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا" [3].

ب- أن اعتداد ابن الأثير بالذوق لا يأتي على حساب الأدوات الأخرى الذي ينبغي على الناقد تحصيلها، يقول: فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعًا قابلاً لهذا الفن فإنه يفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات، هي[4]:

١- معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

٢- معرفة ما يحتاج إليه من اللغة .

٣- معرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم .

---

(١) المثل السائر ق١ ص ٣٠٤.

(٢) راجع : ص ١٩٥- ٢٠١ من هذا الفصل.

(٣) انظر: المثل السائر ق ١ ص ٣٥.

(٤) انظر: المصدر السابق ق ١ ص ٤٠.

٤- الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة وحفظ الكثير منها .

٥- معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك .

٦- حفظ القرآن الكريم، والتدرب باستعماله، وإدراجه في مطاوي الكلام .

٧- حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال .

٨- علم العروض والقوا في الذي يقام به ميزان الشعر، وهو مختص بالناظم دون الناثر .

ويرى أن الذوق لا بد له من ضوابط تحميه، فعلى الشاعر معرفة العروض " لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات، ويكون ذلك جائزًا في العروض، وقد ورد للعرب مثله، فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز منه وما لا يجوز" [١] .

وكذلك فإن الشاعر يحتاج إلى العلم بالقوافي والحركات؛ ليعلم الروي

(١) المثل السائر ق١ ص ٦١، وهو بذلك يخالف ابن طباطبا الذي يرى أن من صح طبعه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض، انظر: عيار الشعر لابن طباطبا.

والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح[1].

ج- أن ما قرره ابن الأثير في حديثه عن الذوق وثقافة الناقد كان محل إشادة وتقدير عند كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين، يقول د/ عبد الحكيم راضي: ومن أكثر النقاد العرب توفية لموضوع الثقافة التي يحتاجها الأديب ضياء الدين بن الأثير في مقدمة كتابه " المثل السائر"، وذلك في حديثه عن آلات علم البيان وأدواته[2].

و في مجال الاعتداد بالذوق يقول د/ محمد زغلول سلام: ملكة الذوق لا غنى لأي ناقد عنها؛ لأنها تمكنه من التعرف على مواطن الجمال والقبح فيما يعرض له من النصوص[3].

ويقول د/ محمد مندور: في مجال الأدب لا يمكن أن يحل شيء محل الذوق[4] ، فإن الذوق السليم هو مرجعنا الأخير في دراسة الأدب، ويجب أن يظل ذلك المرجع[5]، لكنه لا يطلق العنان لهذا الذوق، " فعلينا أن نعرف كيف نميزه، ونقدره، ونراجعه، ونحدده"[6].

---

(١) المثل السائر ق ١ ص٦٢.

(٢) نظرية اللغة في النقد الأدبي د/ عبد الحكيم راضي، ص ١٧٢.

(٣) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، د/ محمد زغلول سلام ص ١٤ ، ط/ منشأة المعارف ، الإسكندرية ، سنة ١٩٨٢م.

(٤) النقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور ص ٤٠٢ ، ط/ نهضة مصر، سنة ١٩٩٦م.

(٥) في الميزان الجديد، د/ محمد مندور ص ١٩٣.

(٦) النقد المنهجي عند العرب د/ محمد مندور ص ٤٠٤.

## الطبع والصنعة[1]:

تأتي نظرة ابن الأثير إلى قضية الطبع والصنعة امتدادًا لنظرته إلى الذوق والأدوات، فملاك الأمر كله الطبع، فإنه إذا لم يكن هناك طبع فإن تحصيل الآلات والأدوات لا يغني شيئًا ؟"[2].

فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعًا قابلاً لهذا الفن افتقر بعد ذلك إلى تحصيل أدوات وآلات صناعته[3].

على أن صاحب الطبع في المنظوم قد يجيد في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي، وكذلك صاحب الطبع في المنثور[4].
المنثور[4].

وهو ما سبق إليه ابن قتيبة، حيث يرى أن الشعراء مختلفون في

---

(١) يختلف النقاد حول هذا المصطلح: الطبع والصنعة، أو الطبع والتصنع، أو الطبع والتكلف، وأخيرا في النقد الأدبى الحديث: الموهبة والتقليد، والذي نريد أن نؤكد عليه هو أن ثمة فرقًا واضحا بين الصنعة والتصنع، فالصنعة عمل يتطلب الجهد والمعاناة والتنقيح والتثقيف، وقد تنتج إبداعا يتأتي لمن حصل أدوات الفن وامتلك آلاته، والتصنع تكلف، ومع التكلف المقت، وللنفس مع التصنع نفرة. انظر في ذلك: قضايا النقد الأدبي الحديث لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٨٧ ، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ط/ دار الثقافة للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٨٣م، وراجع : العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٩، ١٣٠، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ١٩.

(٢) المثل السائر ق ١ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٤٠.

(٤) انظر: المصدر السابق ق ١ ص ٣٨.

الطبع، فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسر له الرثاء ويتعذر عليه الغزل، فـ " المديح بناء والهجاء بناء، وليس كل بان بضرب بانيًا بغيره" [١].

وقضية الطبع والصنعة في البلاغة العربية القديمة هي قضية الموهبة والتقليد في النقد الأدبي الحديث، ولم يكن الاختلاف بين القديم والحديث أكثر من اختلاف في المصطلح لا في المفاهيم[٢].

ويرى بعض النقاد المحدثين أن البلاغة العربية القديمة تؤكد ريادتها المطلقة في تطوير وعي مبكر بهذا الركن من أركان النظرية الأدبية[٣].

وما ذهب إليه ابن الأثير – من أن المدار أولاً على الطبع، ثم يأتي بعد ذلك دور الأدوات في صقل هذا الطبع وتهذيبه – أمر أكده كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين، فـ " أهمية الموهبة كشرط للإبداع أمر مفروغ منه"[٤] ، وليس في إمكاننا أن نتصور صنعة في الفن لا ترتد إلى حس مرهف وقلب حي وعقل نابض إلا أن تكون صنعة باهتة، وقشور طلاء، وعرضًا من أعراض الجواهر، وكل ذلك يزول بعد حين، ولا يبقى إلا بمقدار اللذة منه، وهي لذة موقوتة، لا يقدر لها أن تعيش في أعماق الزمان[٥] .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٣، وانظر: قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٨٣.

(٢) انظر: المرايا المقعرة ص ٤٥٨.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ٤٥٨.

(٤) المرجع السابق ص ٤٦٠.

(٥) انظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص ٢٦٣.

لكن هذه الموهبة لا بد لها من تعهد طويل حتى يدرك المبدع إدراكًا دقيقًا معاني الأصول الأدبية الأصيلة، ويحسها في أعماقه إحساسًا يفيض عليه بصور جديدة حية قوية نابضة[1] .

## رأيه في البديع :

يمكن أن نخلص من دراسة ابن الأثير للبديع في كتابه "المثل السائر" إلى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن البديع عند ابن الأثير ليس مجرد حلية أو زينة لفظية، إنما هو في صميم العمل الأدبي، وفي صلب تأليف الألفاظ المركبة[2]، وينبغي أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه عن باطل مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب.

فإذا صورت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع، ولم يواتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجًا إلى الزيادة ولا إلى النقصان، وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه، وإذا دللت بذلك اللفظ لا يكون مسجوعًا إلا أن تضيف إليه شيئًا أو تنقص منه، فإن فعلت ذلك فإنه الذي

---

(١) في النقد الأدبي، د/ شوقي ضيف ص١٧٩، وانظر: المرايا المقعرة، د/عبد العزيز حمودة ص٤٦١.

(٢) المثل السائر ق١ ص٢١٣.

يذم من السجع ويستقبح ؛ لما فيه من التكلف[1].

الأمر الآخر: أنه نظر إلى البديع بعين الاعتدال، فلم ينكره على إطلاقه أو يقبله على إطلاقه، إنما قبل منه ما جاء عفوًا غير متكلف، يقول: إن هذه الأصناف – من التصريع، والترصيع، والتجنيس، وغيرها – إنما يحسن منها في الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة من الوجه، أو كان كالطراز من الثوب، فأما إذا تواترت فإنها لا تكون مرضية لما فيها أمارات الكلفة[2] ، وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن[3].

وما ذهب إليه ابن الأثير – من ضرورة أن يكون اللفظ في البديع تابعًا للمعنى لا العكس– قد تبنته ودعت إليه الدراسات الأسلوبية والنقدية الحديثة، يقول د / عبد القادر عبد الجليل: إن علم البديع ينتج عنه شحنة بلاغية مقصدها تحسين المعنى، المعنى أولاً وبالذات، واللفظ ثانيًا وبالعرض[4] .

وقد أدخلت هذه الدراسات البديع في باب الأسلوبيات، وجعلته قسيمًا للمعاني والبيان لا زائدًا عليهما، وراعت فيه المستويين: الصوتي

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) المثل السائر ق١ ص٢٥٩.

(٣) المصدر السابق ق١ ص١١٣.

(٤) الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، د/ عبد القادر عبد الجليل ص٥١٩.

والدلالي معًا[1] .

فالتصريع، وتشابه الأطراف، ورد العجز على الصدر، والإرصاد، وترديد الحبك، والمشاكلة، وغيرها من فنون البديع – قيم تعبيرية ترد في الكلام فتؤثر فيه صوتيًّا ودلاليًّا من خلال ارتباطها بموقع معين من السياق، تعمل من خلاله على إغلاق المعنى، أو مده، أو إكماله، أو بتره، على حسب مقتضيات المقام الذي مثل – عند القدماء – البعد المكاني للأداء الفني[2].

وقد درس بعض النقاد الأسلوبيين البديع في إطار ما يطلقون عليه "علم الصوتيات الشعرية"[3]، و "علم الرسم الشعري"[4]، و "فن الجماليات البنائية"[5] .

وأرى أن ما ذهب إليه ابن الأثير – من ضرورة أن يكون المعنى في البديع تابعًا للفظ، وأن يجرى استعماله في الكلام مجرى الغرة من الوجه، دون إسراف أو تكلف – يعد ضابطًا جيدًا وواعيًا لهذا الفن، وأن ابن الأثير قد سبق بذلك كثيرًا من النقاد والبلاغيين الذين تبنوا هذه الرؤية بعد أن رأوا أن الإسراف في استخدام المحسنات البديعية إنما يأتي على

---

(١) البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د/ محمد عبد المطلب ص٣١٤، ٣١٥.

(٣) انظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة، د/ سعد مصلوح ص٧٧.

(٤) انظر: المرجع السابق ص٧٧.

(٥) انظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، د/ عبد القادر عبد الجليل ص٥١٨.

حساب المعنى ويكون عبئًا ثقيلاً على النص الأدبي[1] .

## التماسك النصي :

يشير أحد الكُتَّاب الأسلوبيين إلى جرأة ابن الأثير وتفرده من بين النقاد القدماء بنظرته إلى تضمين الإسناد، وهو احتياج البيت في تمام معناه إلى البيت أو الأبيات التي تليه[2]، حيث كانت وحدة البيت واستقلال معناه محل اعتبار لدى أكثر النقاد القدماء، لكن ابن الأثير لا يعده عيبًا[3] ؛ "لأنه إن كان سبب عيبه أن يُعلّق البيت الأول على الثاني، فليس ذلك بسبب يوجب عيبًا، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من النثر في تعلق إحداهما بالأخرى"[4] .

ويرى هذا الكاتب أننا لو تبنينا نظرة ابن الأثير هذه لكانت القصيدة كالسبيكة الواحدة، لا يستطيع أحد أن يدعي تفككها وتشتت أجزائها، أو خلوها

(١) انظر: الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي د/ فوزى السيد عبد ربه ص٢٧ ، ط/ مطبعة الحسين الإسلامية ، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) يعرف ابن رشيق التضمين بأنه تعلق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها، ويقول: وكلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثاني بعيدة عن القافية كان أسهل عيبا من التضمين. انظر: العمدة ج ١ ص١٧١.

والتضمين الذى لا يتم الكلام إلا به يعد من عيوب القوافي عند العروضيين، ويسميه بعضهم التضمين القبيح. انظر: المجموعة الوافية بعلمي العروض والقافية لأستاذنا المرحوم د/ عبد السلام أبو النجا سرحان ص١٨٦، ط/ المؤلف، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣) انظر: الأسلوبية ونظرية النص، د/ إبراهيم خليل ص٥٦.

(٤) انظر: المثل السائر ق٣ ص٢٠١.

من وحدتها التي ينشدها المبدع، وتعين المتلقي على التفاعل مع النص تفاعلاً يمكنه من الوقوف على مزاياه المتمثلة في انضباطه وتنظيمه الداخلي[1] .

ومما يتصل برؤية ابن الأثير للتماسك النصي دعوته إلى حسن التخلص، يقول: أما التخلص فهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلامًا آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغًا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه[2] .

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها سيف الدولة[3]:

خَليلَيَّ إني لا أرى غير شاعر
فَلِمْ منهُمُ الدعوىَ وَمِنّي القصائِدُ[4]

فلا تعجبا إنَّ السيوفَ كثيرةٌ
وَلكِنَّ سيفَ الدولَةِ اليـــومَ واحِدٌ

فهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحد؟[5] .

---

(١) انظر: الأسلوبية ونظرية النص، د/ إبراهيم خليل ص٥٦.

(٢) المثل السائر ق١ ص١٢١.

(٣) المصدر السابق ق٣ ص١٢٤.

(٤) "لم" للاستفهام ، دخلت لام الجر على "ما الاستفهامية" فحذف ألفها، وسكنت الميم لضرورة الشعر.

(٥) المثل السائر ق٣ ص١٢٥.

ولا شك أن الدعوة إلى التماسك النصي ووحدة العمل الفني تعد من أهم قضايا النقد الأدبي الحديث[1] .

## السرقات الأدبية:

عندما وصل موضوع السرقات الأدبية إلى عصر ابن الأثير كان قد أخذ نصيبًا وافرًا من الدراسة عند كل من ابن طباطبا[2]، والقاضي الجرجاني[3]، والآمدي[4]، وأبي هلال العسكري[5]، وعبد القاهر[6]، وغيرهم، و "كان البلاغيون العرب انتهاء بعبد القاهر قد قتلوا الموضوع بحثًا وجدلاً، ووصلوا في نهاية الأمر إلى تقنين شبه محدد إلى ما يمكن اعتباره تأثيرًا وما يمكن اعتباره نقلًا وسرقة"[7].

ولا تكاد رؤية ابن الأثير للسرقات تخرج عما استقر عليه النقاد قبله من أن السرق لا يقع في الألفاظ المفردة، ولا في المعاني المختلفة، ولا في المعاني العامة المشتركة، ولا في المعاني المستفاضة المتداولة، إنما يقع

(١) راجع في ذلك: في النقد الأدبي ص١٥٣، وقضايا النقد الأدبي الحديث ص٩٦، والبيان العربي ص٢٩٩، وعلم الأسلوب.. مبادئه وإجراءاته ص١٠٥، ودلالة السياق ص٦٢٩.

(٢) انظر: عيار الشعر ص٧٩ وما بعدها.

(٣) انظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٨٣ وما بعدها.

(٤) انظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي ج ١ ص١٢٣. ١٢٧، وص٣٤٦ وما بعدها ، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٩٢م.

(٥) انظر: الصناعتين ص٢١٧ وما بعدها.

(٦) انظر: أسرار البلاغة ص٣١٣ وما بعدها.

(٧) المرايا المقعرة لعبد العزيز حمودة ص٤٤٤.

في المعنى البديع المخترع.

ويحسب لابن الأثير في هذا الباب أمران:

الأمر الأول: كثرة شواهده وتطبيقاته التي تدل على سعة علمه واطلاعه على منظوم الكلام ومنثوره، مما أسهم في نشاط النقد التطبيقي، يقول د/ عبد العزيز حمودة: إن الجدل الذي انشغل به البلاغيون العرب مبكرًا حول سرقة المعاني وتداعيها، واقتباس الصور أو تقاربها - كان البداية الحقيقية للنقد التطبيقي القائم على قراءة لصيقة للنص.

وأهمية ذلك تاريخيًّا أن الحديث في أمور السرقات الشعرية في تلك المرحلة المبكرة، وقبل أي تأثر حقيقي بالنظريات والأفكار الوافدة أَصَّل الممارسات التطبيقية تأصيلاً كاملاً في الفكر العربي وثقافته، ثم إن ذلك الجدل التطبيقي هو الذي فتح الباب أمام التنظير البلاغي والنقدي فيما بعد[1] .

الأمر الآخر: أن ابن الأثير استوعب ما كتبه النقاد السابقون وأعاد صياغته وتقنينه[2] .

وإن كان يحسب عليه أنه قد أسرف في التقسيم والتفريع، مما أفقد بعض تقسيماته الدقة العلمية، وجعل تعريفه لبعض الأقسام غير جامع ولا مانع، فإنه قد قسم السرق إلى خمسة أقسام، ذكر ثلاثة منها، هي [3] :

١ - النسخ، وهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه.

---

(١) المرايا المقعرة ، د/عبد العزيز حمودة ص٤٤٢، ٤٤٣.

(٢) المثل السائر ق٣ ص٢١٨ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ق٣ ص٢٢٢.

٢ – السلخ، وهو أخذ بعض المعنى .

٣ – المسخ، وهو إحالة المعنى إلى ما دونه .

ثم قال: وهناك قسمان آخران[1] :

أحدهما: أخذ المعنى مع الزيادة عليه.

والآخر: عكس المعنى إلى ضده .

وفي حديثه عن السلخ جعله اثني عشر ضربًا، الضرب الرابع منها: أن يؤخذ المعنى فيعكس[2]، والضرب السادس: أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر[3] .

وعليه فالقسمان الأخيران من تقسيمه الخماسي لأنواع السرقات داخلان في القسم الثاني وهو السلخ، فما كان أغناه عن كثرة هذه التفريعات[4] .

## القديم والحديث:

يسلك ابن الأثير في عداد النقاد المنصفين في نظرتهم إلى القديم والمحدث، فإنه لا ينظر إلى القديم بعين الإجلال لتقدمه، ولا إلى المحدث بعين الازدراء لتأخره، بل ينظر بعين النصفة والعدل إلى كل من الفريقين.

(١) المثل السائر ق٣ ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق ق٣ ص٢٤٤.

(٣) المصدر السابق ق٣ ص٢٤٩.

(٤) انظر: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، د/ محمد زغلول سلام ص٢٩٢، والنقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور ص٣٧٠ – ٣٧٢.

وهو بذلك يتابع كلاً من ابن قتيبة[1] والقاضي الجرجاني[2] في إنصافهما للمحدثين، يقول: ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل اللطيف، فمتى وُجد ذلك فكل مكان خيمت فيه فهو بابل[3] .

وينكر على ابن الأعرابي انحيازه إلى جانب الشعر القديم، ويستنكر ما كان منه عندما أُنشد أرجوزة على أنها لأحد الشعراء القدماء فاستحسنها وقال: هذا هو الديباج الخسرواني[4]، ثم استكتبها، فلما أنهاها قيل له: هذه لأبي تمام، فقال: من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة، ثم ألقى الورقة من يده، وقال: يا غلام خرّق خرّق[5] .

وفي حديثه عن التخلص والاقتضاب يرى أن حسن التخلص دليل على حذق الشاعر وقوة تصرفه، وأن المحدثين تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة[6] .

أما الاقتضاب فإنه ضد التخلص، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلامًا غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك، ولا يكون

---

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٣.

(٢) انظر: الوساطة للقاضي الجرجاني ص٥٠.

(٣) المثل السائر ق٣ ص٢٢٥.

(٤) الديباج الخسرواني: الحرير الفارسي الفاخر.

(٥) انظر: المثل السائر ق٣ ص٢٧٣.

(٦) انظر: المصدر السابق ق٣ ص١٢٢.

للثاني علاقة بالأول، وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين[1] .

فإنه يرى أن المحدثين أبدعوا في تخلصهم، وتفوقوا في ذلك على أسلافهم من الجاهليين والمخضرمين.

ولا شك أن نظرة ابن الأثير إلى القديم والمحدث تتسم بالدقة والموضوعية، فإن الله عز وجل – كما ذكر ابن قتيبة – لم يقصر العلم والشعر على زمن دون زمن، ولا خص به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره[2]، فقديم اليوم كان حديث الأمس، وحديث اليوم سيكون قديم الغد.

## العدول والانحراف[3] :

يعد ابن الأثير من أقدم النقاد الذين تحدثوا عن مصطلح العدول، وأسسوا له كظاهرة أسلوبية، فقد ذكره – باعتباره انتقالاً عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى أو عن أسلوب إلى أسلوب آخر، لخصوصية تقتضي

---

(١) انظر: المصدر السابق ق٣ ص١٢١.

(٢) انظر: الشعر والشعراء ص٢٣، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ص٣٠، ٣١ ، ومطالعات في الكتب والحياة للعقاد ص٢٣٠ ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٨٧م.

(٣) العدول: هو الانتقال عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، أو عن أسلوب إلى أسلوب آخر، لخصوصية يقتضيها المقام أو السياق، أما الانحراف: فيأتي عند بعض النقاد مرادفًا للعدول، ويتجاوز عند بعضهم هذا المعنى إلى كونه وسيلة لكسر النظام ونقضه من أساسه. انظر: الفصل الثالث من هذا الكتاب.

**ذلك - ست مرات في باب الالتفات وحده[1]، وذكره أو أشار إليه في مواضع كثيرة، منها: العدول عن الحقيقة إلى المجاز[2]، والعدول عن الخطاب بالجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية أو العكس[3]، والعدول عن حرف من حروف الجر إلى حرف آخر[4]، والعدول عن استخدام صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى[5]، وهو ما يعرف في النقد الحديث بعملية الاستبدال[6] .**

**وقد أورد ابن الأثير في مثله السائر شواهد كثيرة لهذه الظاهرة الأسلوبية، منها:**

**أ - قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [7] .**

**يقول: ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي هنا إلى المستقبل، فقال: ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾، ولم يقل: "فأصبحت" عطفًا على ﴿ أَنزَلَ ﴾، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم يمض، وهذا كما تقول: أنعم عليّ فلان فأروح**

---

(١) المثل السائر ق٣ ص١٣٧، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ق٢ ص٦٤، ٦٨.

(٣) انظر: المثل السائر ق٢ ص١٩١.

(٤) انظر: المصدر السابق ق٢ ص١٨٩، ١٩٠.

(٥) انظر: المصدر السابق ق١ ص٢٩٧.

(٦) انظر: المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة ص٢٥٢، ٢٥٥، وقد فصلت القول في العدول عند ابن الأثير في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٧) سورة الحج: الآية ٦٣ .

وأغدو شاكرًا له، ولو قلت: فرحت وغدوت شاكرًا له، لم يقع ذلك الموقع، لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى[1] .

ب - قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] .

فقال سبحانه : ﴿ خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ و﴿ تَهْوِى ﴾، وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به[3] .

وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها[4] .

وقد آثر ابن الأثير مصطلح العدول على الانحراف، فلم يذكر الانحراف كظاهرة أسلوبية في "المثل السائر" كله إلا مرة واحدة في حديثه عن قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ...﴾[5] .

---

(١) انظر: المثل السائر ق٢ ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) سورة الحج: الآية ٣٠، ٣١.

(٣) انظر: المثل السائر ق٢ ص١٤٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ق٢ ص١٤٥.

(٥) سورة الفاتحة: الآية ٧.

يقول : لقد أصرح سبحانه وتعالى الخطاب لما ذكر النعمة[1]، فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ، ثم قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفًا على الأول؛ لأن الأول موضع التقرب من الله تعالى بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظًا، وروى عنه لفظ الغضب تحننًا ولطفًا[2].

وأرى أن في إيثاره مصطلح العدول على مصطلح الانحراف ما يشير إلى دقته وسلامة ذوقه؛ لأن الانحراف مع كونه ميلاً أو انصرافًا عن الشيء إلى غيره فإن جذره اللغوي يحمل شيئًا من معاني الزيغ والخروج عن طريق الجادة، على العكس من الجذر اللغوي للعدول، الذي يحمل في طياته معنى الاستقامة والتقويم، يقال: عدلته فاعتدل أي سويته فاستوى، وقومته فاستقام، وعليه قول عمر بن الخطاب ﷺ : "الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني كما يعدل السهم في الثقاف" ، أي: قوموني[3] .



(١) أصرح الخطاب: أي صرح بذكر الفاعل في قوله تعالى: ﴿أنعمت﴾ .

(٢) المثل السائر ق٢ ص١٣٧.

(٣) لسان العرب لابن منظور: مادة (عدل)، وانظر: الفصل الثالث: العدول بين القدماء والمحدثين ص١٠٤، ١٠٥.

# الخاتمة

وختامًا أسجل الآتي :

١) أننا لو أعدنا قراءة تراثنا النقدي قراءة واعية منصفة لوقفنا على كثير من كنوزه ونفائسه ، واتضح لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الحياة الأدبية العربية في عصرها الذهبي كانت تموج بتيارات وحركات نقدية لا تقل حيوية وأهمية عن حركة الحياة الأدبية والنقدية في القرنين العشرين والحادي والعشرين سواء في أوروبا أم في عالمنا العربي ، وأن القضايا التي تناولها النقاد العرب القدماء لم تمت بموتهم، فإن الكثير منها ما زال حاضرًا بقوة في ثقافتنا الأدبية والنقدية ، وما زال قادرًا على تشكيل منطلق قوي ومتين لنظرية عربية حديثة في النقد الأدبي تنظر بعين الاعتبار إلى الماضي والحاضر معًا، بحيث لا تنكفئ على القديم ولا تنسلخ منه، ولا تنعزل عن الحاضر والآخر الثقافي ، ولا تذوب في هذا الآخر ذوبانًا يفقدها خصوصيتها وتميزها، بل تنتقي من هذا وذاك النافع والمفيد ، الذي يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا العربية والإسلامية ، بحيث تصبح هذه النظرية - عند نضجها - هويتنا الواقية في مواجهة تيارات العولمة الجارفة العاتية.

٢) أن طريقة التعبير عن الأفكار أو العواطف أو الأحاسيس إذا جاءت في أعلى درجات المشاكلة وإصابة المحزّ في التوافق والمواءمة بين اللفظ والمعنى، سواء تضمنت رمزًا أو قناعًا أم لم تتضمن شيئًا من ذلك – فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح "المعادل التعبيري" وهو المصطلح الأعم .

٣) أن هذه الطريقة إذا تضمنت رمزًا أو قناعًا أو خلق موقف أو سلسلة من المواقف تعادل العواطف والمشاعر والأفكار – فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح "المعادل الموضوعي" فتكون العلاقة بينه وبين "المعادل التعبيري" علاقة عموم وخصوص مطلق ، فكل معادل موضوعي هو معادل تعبيري ولا عكس .

٤) أن طريقة التعبير اللغوي إذا لم تتضمن رمزًا ولا قناعًا ، وكانت في قمة المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها – فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح "المعادل اللغوي" وتكون العلاقة بينه وبين "المعادل التعبيري" علاقة عموم وخصوص مطلق– أيضًا – ، فكل معادل لغوي هو معادل تعبيري ولا عكس.

٥) أن المعادل اللغوي إذا قصد به قمة المشاكلة بين اللفظ ومعناه فإننا يمكن أن نطلق عليه مصطلح "المعادل اللفظي" ، وإذا قصد به قمة المشاكلة بين الجملة أو العبارة وما تعبر عنه من عواطف ومشاعر وأفكار فإننا يمكن أن نطلق عليه مصطلح "المعادل الأسلوبي" .

٦) أن قضية المعادل اللغوي وإن لم يتناولها نقادنا القدماء كمصطلح نقدي فإنها ضاربة بجذور راسخة في تنظيرهم لقضية المواءمة والمشاكلة بين الألفاظ ومعانيها، وفي تطبيقاتهم لهذه القضية.

٧) أنني اخترت التطبيق على بعض جوانب النص القرآني، لأن القرآن الكريم هو - جملة وتفصيلاً - في أعلى درجات البلاغة والبيان، وعلى ذروة سنام قمة المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها ، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام رب العالمين ، ومعجزة الإسلام الكبرى ؟ لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [١]، وما أن سمع أحد الأعراب قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٢]، حتى انطلق لسانه قائلاً : أشهد أن هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين وإلا فمن هذا الذي يستطيع أن يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع ؟ ويأمر السماء أن تكف عن إنزال الماء فتقلع؟!

ولعل هذه البلاغة العالية التي لا تدانيها بلاغة هي التي دفعت

(١) سورة الجن : الآيتان ١- ٢ .

(٢) سورة هود : الآية ٤٤ .

كاتبًا كطه حسين إلى أن يقو ل: الكلام شعر ونثر وقرآن، ذلك لأن القرآن الكريم وإن كان من جنس كلامهم وحروفهم إلا أنه نسيج وحده في الفصاحة والبلاغة والبيان ، إذ لا تكاد ألفاظه تصل إلى الأسماع حتى تكون معانيه قد وصلت إلى القلوب، فيهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة، فلا تدري أجاءك من جهة لفظه أم من جهة معناه، وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول : ﴿ ... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

★★★

٨) أن أدباءنا ونقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بالسياق وأثره في بنية النص، وإن لم يطلقوا عليه هذا الاسم ، أو يعرفوه بحد أو رسم ، فقد راعوا ما يقتضيه السياق سواء في إشاراتهم إلى ضرورة مراعاة الحال والمقام ، أم في حديثهم عن النظم ، أم في ثنايا دراساتهم التطبيقية .

٩) أن ما كتبه البلاغيون والنقاد القدماء حول السياق يعد أساسًا قويًّا للدراسات الأسلوبية والسياقية الحديثة والعصرية ، وبخاصة كتابات عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وكتابات ابن الأثير في المثل السائر، وأن كثيرًا من الكتاب المعاصرين المنصفين يعدون الإمام

(١) سورة فصلت : الآيتان ٤١- ٤٢.

عبد القاهر الأب الروحي للدراسات الأسلوبية والسياقية ، ويعدون دراسته للنظم منطلقًا قويًّا لكثير من قضايا النسق الحداثي .

١٠) أن النقاد المحدثين والمعاصرين فصلوا ما أجمله النقاد القدماء وحاولوا تقنينه، فبعد أن كان الأمر – في جملته – يدور حول النظم ومقتضى الحال والمقام وما شابه ذلك صار عند النقاد المعاصرين أكثر تفصيلاً ، فتحدثوا عن سياق النص بما يشمله من بنى صوتية وتصريفية ومعجمية وتركيبية ، وعن سياق الموقف وسياق الثقافة .

١١) أن الفارق بين رؤية القدماء والمعاصرين للسياق هو أن القدماء قد انصبت عنايتهم على دراسة الكلمة وموقعها من الجملة ، أو دراسة الجملة وموقعها من النص ، وما يعتريها من تقديمٍ أو تأخيرٍ ، أو حذفٍ أو ذكرٍ ، أو فصلٍ أو وصلٍ ، ونحو ذلك ، في حين تطلب المحدثون والمعاصرون تجاوز هذه النظرة الجزئية إلى دراسة سياقية تنظر بعين الاعتبار إلى النص برمته ، وتعمد إلى ربط السياقات المختلفة بعضها ببعض ، ولا تقتصر على مجرد الربط بين هذه السياقات ، بل تخرج من هذا الربط بسمات وخصائص متميزة، غير أن دراساتهم التطبيقية وإن حاول بعضها مقاربة بعض النصوص بصفة شمولية فإن أكثرها لا يكاد يخرج في مقاربته التحليلية أو النقدية عن تناول القدماء لنصوصهم .

١٢) من خلال رؤيتنا للدراسات الأسلوبية ، والنصية ، والبنيوية ،

والتفكيكية ، وغيرها ، نؤكد أن نظرية السياق من أهم النظريات في دراسة وتحليل النصوص ، لأنها وإن كانت تعنى بالنص من داخله ، وتركز على دراسة بناه ولبناته الصوتية والمعجمية والدلالية والبلاغية والجمالية فإنها لا تلغي المعطيات والمؤثرات الخارجية التي يمكن أن تضيء بعض جوانبه ، بل لا يمكن أحيانًا فهم بعض جوانب أو أسرار النص إلا بالوقوف على هذه المعطيات .

١٣) أن الوعي بالسياق ودراسته يفيد إفادة بالغة في دراسة النص القرآني سواء في تفسيره تفسيرًا تحليليًّا أم في تفسيره تفسيرًا موضوعيًّا ينظر إلى الآيات في ضوء سياقها الأكبر ومقاصدها التشريعية العامة ، كما أنه يفيد الأصوليين والفقهاء في بناء قواعدهم الكلية واستنباط أحكامهم التفصيلية ، كما أنه لا غنى عن دراسته للأديب المبدع والأديب الناقد على حد سواء .



١٤) أن مصطلح " العدول " يعني الخروج عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى أو عن أسلوب إلى أسلوب آخر ، لخصوصية يقتضيها المقام أو السياق .

١٥) أن العدول بهذا المفهوم ضارب بجذور راسخة في أعماق تراثنا الأدبي والنقدي ، وأن أدباءنا ونقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بمفهوم العدول ، وأنهم أفادوا منه في كثير من تطبيقاتهم النقدية

والبلاغية ، وأن تناولهم له كان في ضوء ما يقتضيه السياق دون تكلف أو اعتساف .

١٦) أن تناول المحدثين المنصفين للعدول لا يخرج عن تناول القدماء له إلا في بعض التفصيلات وشيء يسير من التنظير الذي تقتضيه طبيعة العصر .

١٧) أن فهم هذا المصطلح يشكل منطلقًا رئيسًا لفهم اللغة الأدبية والبنى الأسلوبية التي يعد الخروج على النمط المثالي المألوف من أهم خصائصها ، ويسهم – إلى حد كبير – في فك شفرات هذه اللغة وتلك البنى .

١٨) أن كثيرًا من تخريجات البلاغيين على خلاف الأصل أو خلاف مقتضى الظاهر لا تكاد تفهم فهمًا دقيقًا إلا في ضوء الوعي النقدي لمفهوم العدول .

١٩) أن مفهوم العدول جاء واضحًا جليًّا عند من استخدمه من النقاد القدماء أو المحدثين المنصفين غير المتحاملين على تراثهم ، في حين أدى تفنن بعض النقاد والكتاب الحداثيين وما بعد الحداثيين في اختيار مصطلحات بديلة ولجوء بعضهم إلى نقل مصطلح غربي بديل إلى ارتباك وفوضى في فهم هذا المصطلح ، فجاء محمَّلاً بما ينبئ عن رؤيتهم الحانقة – أو المتوجسة على أقل تقدير – تجاه

تراثنا اللغوي والأدبي ، فكانت مصطلحات عدة ، مثل : الانحراف ، الانزياح ، الانتهاك ، الشناعة ، العصيان ، الإطاحة ، خرق السنن ، وغير ذلك من المصطلحات التي تحمل معنى الثورة والتمرد تارة ، والهدم والتدمير تارة أخرى ، وهو ما صرح به بعض كتاب هذه الحداثة .

★★★

٢٠) أن فهم الأسرار الكامنة وراء علاقات الحضور والغياب يمكن أن يسهم في تشكيل رؤية ناضجة لدى كل من المبدع والناقد بأهمية إعمال الفكر في سلسلة البدائل التي يمكن أن ترقى بالنص إلى مستوى أفضل ، وتجنب المبدع أو المنشئ كثيرًا من الملاحظات النقدية التي يمكن أن يتعرض لها عمله إذا جاء عفو الخاطر دون إعمال العقل في هذه البدائل ، أو دون مراعاة الدقة في اختيار أنسبها وأقربها إلى بنية النص وسياقه .

وتبلغ الدقة ذروتها حين يبحث الناقد في سلسلة البدائل المتاحة فيعود بعد جهدٍ ولأيٍ إلى البنية التي اختارها المبدع ، حيث لا يصلح في موضعها غيرها ، ولا يقوم مقامها بنية سواها .

كما أن فهم هذه الأسرار فهمًا دقيقًا يسهم – إلى حد كبير – في تصور ما يحمله الحاضر من دلالة على الغائب ، أو تشرّب لمعناه ، ويساعد على ردم الفجوة بين الحاضر والغائب ، بين المتجلي والخفي ، بين المذكور والمسكوت عنه ، وفق تعبيرات الحداثيين

المتعددة .

٢١) أن نقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بمفهوم كثيرٍ من المصطلحات النقدية الحديثة ، وإن لم يخوضوا في تعريفها ، أو يقفوا عند تحديدها ذلك التحديد العلمي الدقيق الذي اقتضته طبيعة الدراسات النقدية الحديثة وسُنّة التطور العلمي .
فعلاقات الحضور والغياب كانت ماثلة بوضوح في أذهانهم ، وقد أفادوا منها في تحليل كثيرٍ من النماذج الأدبية لاستخلاص ما فيها من ألوان الجمال أو رصد ما فيها من مظاهر الركاكة والضعف .
وبعبارة أخرى : كانت هذه الخاصية من أهم مظاهر تقييم العمل الأدبي عندهم ، وهو ما يؤكده بعض النقاد المحدثين والمعاصرين.
على أن المصطلح المتكرر في وصف العلاقات الأفقية أو المحور التتابعي/التعاقبي عند نقادنا القدماء – هو ( الجوار ) أحيانًا و ( الضم ) أحيانًا أخرى .
والمصطلح المتكرر في وصف العلاقة الرأسية أو محور الاستبدال – عندهم – هو ( الاختيار ) ، وهو ما يؤدي المعنى الحديث بالكامل وفق تعبير بعض النقاد الحداثيين .

٢٢) أن بعض البنى اللغوية أو الأسلوبية إنما يبرز دورها الأسلوبي

بغيابها أكثر من حضورها ، فما من بنيةٍ لغويةٍ أو أسلوبيةٍ حذفت في الموضع الذي ينبغي أن تحذف فيه إلا كان حذفها هناك أحسن وأبلغ من ذكرها ، وكان إضمارها في النفس أولى وآنس من النطق بها .

٢٣) أن نقادنا القدماء لم ينظروا إلى موضوع الحضور أو الذكر بمعزل عن الغياب أو الحذف ، إنما نظروا إلى كلٍّ من طرفي هذه الثنائية في ضوء علاقته بالآخر واستدعائه له أو تطلبه إياه ، أو ما يحمله من إشارة إليه أو دلالة عليه ، دون تكلفٍ أو اعتساف .

٢٤) أن تناول النقاد المحدثين لعلاقات الحضور والغياب دار – في جملته – في فلك القدماء ، واقتفي أثرهم في كثيرٍ من المواضع ، وبخاصة عبد القاهر الجرجاني الذي كان محل إشادةٍ وتقديرٍ من أكثر النقاد المحدثين والمعاصرين الذين تحدثوا عن هذه القضية . على أن بعضهم قد مال إلى مصطلحي الجوار والاختيار اللذين استخدمهما القدماء ، في حين آثر بعضهم التعبير الحداثي (الحضور والغياب) ، وحاول وضع تصور نقدي وأساس تنظيري لفهم هذه العلاقات ، وطبيعة العلاقة الجدلية بينها ، ودور كل منها وأثره في بنية النص وسياقه .



٢٥)أن كتاب "المثل السائر" لابن الأثير يعد أنموذجًا جيدًا للمصادر

الأدبية والنقدية التي ينبغي إعادة قراءتها في حضور خلفية نقدية عصرية، وأن هناك مصادر أخرى : كـ "الوساطة" للقاضي الجرجاني، و "الموازنـة" للآمـدي، و"الصـناعتين" لأبـي هـلال العسـكري، و"العمـدة" لابـن رشـيق، وغيرهـا، في حاجـة ملحـة إلى مثـل هـذه القراءة.

٢٦) نظر ابن الأثير إلى المفردة على أنها جزء لا يتجزأ من النظم، واعترف بقيمة وجمال الطرفين معًا.

فأول الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الأدب عنده إنما هي الألفاظ المفردة، وحكمها حكم اللآلئ المبددة، فإنها تُتخيّر وتُنتقى قبل النظم، وللمفردة محاسن تضاف إلى محاسن النظم، ولجرس الألفاظ وقع إيجابي كثيرًا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد إحساسه.

على أن اهتمام ابن الأثير باللفظة المفردة لا يأتي على حساب التركيب أو السياق، فاختيار المفردة ما هو إلا مقدمة لنظمها مع أختها المشاكلة لها، ووضعها في الموضع الذي يتطلبه الموقف والسياق، مع تأكيده أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها، لأن التركيب أعسر وأشق.

وهذه النظرة الشاملة للفظة والسياق معًا قد تبناها كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين .

٢٧) درس ابن الأثير الجملة في إطار النص، ولم يكن تقليديًّا في دراسته، فعندما درس سياق التقديم والتأخير لم يقف عند النظرة الجزئية التي تتعلق بقضايا الإسناد أو التعلق، كتقديم الخبر على المبتدأ ، أو تقديم بعض متعلقات الفعل، إنما تجاوز هذه النظرة إلى رؤى سياقية أوسع، كتقديم السبب على المسبب، والكثير على القليل، والأعجب على العجيب.
وقد أثنى بعض النقاد المعاصرين على دراسته للجملة في إطار النص، وعلى نظرته الشاملة لبعض القضايا الأسلوبية، كدراسته لسياق الحذف في إطار سياق أكبر هو سياق الإيجاز، وسياق الذكر في إطار سياق أعم هو سياق الإطناب، وعدّوا ذلك محاولة جادة يمكن تنميتها في مجال البحث البلاغي الحديث، وربطه بالدراسة الأسلوبية، بحيث يصبح الكل له الأهمية الأولى أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء، وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء، ولا توقف تأثيره في السياق.

٢٨) يحسب لابن الأثير في مثله السائر كثرة شواهده وتطبيقاته التي تدل على سعة علمه، واطلاعه على منظوم الكلام ومنثوره، وتمكنه من أدوات فنه، مما أسهم في نشاط النقد التطبيقي.

★★★

وإني لأرجو أن أكون قد أسهمت في تسليط الضوء على هذا الجانب المشرق من تراثنا الأدبي والنقدي ، ولو بلفت النظر إلى بعض ما يحمله

هذا التراث العريق من قيم أدبية وبلاغية ونقدية ، مما يمكن أن يكون منطلقًا قويًّا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي تحمل بصمتنا وخصوصيتنا وخصائصنا الثقافية.

فإن كنت قد وفقت فالفضل لله أولاً وآخرًا، وإن كانت الأخرى فحسبي أني حاولت واجتهدت في أن أسخر قلمي لخدمة لغة القرآن الكريم.

والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان.



# أهم المصادر والمراجع


١) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢) الأساليب الشعرية المعاصرة ، د/ صلاح فضل ، ط/ دار الآداب ، بيروت ، سنة ١٩٩٥م .

٣) أسرار البلاغة ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: هـ . ريتر ، نشر مكتبة المتنبي ، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٤) الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام ، د/ عدنان رضا النحوي ، ط/ دار النحوي للنشر والتوزيع بالرياض ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٥) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، د / فتح الله أحمد سليمان ، ط/ المطبعة الفنية ، نشر الدار الفنية بالقاهرة ، سنة ١٩٩٠م.

٦) الأسلوبية والأسلوب ، د/ عبد السلام المسدي ، ط/ الدار العربية للكتاب ، تونس.

٧) الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، د/عبد القادر عبد الجليل ، نشر دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

٨) الأسلوبية ونظرية النص ، د/ إبراهيم خليل ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٩٧م .

٩) الأعلام ، للزركلي ، ط/دار العلم ، بيروت ، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٠) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق: عبد الستار فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٥٥م.
١١) إنتاج الدلالة الأدبية ، د/ صلاح فضل ، ط/ المركز الإسلامي للطباعة ، نشر مؤسسة مختار للتوزيع والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٨٧م.
١٢) الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع ، للخطيب القزويني ، تحقيق: د / عبد القادر حسين ، نشر مكتبة الآداب ، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
١٣) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور/ كاظم الظواهري ، نشر دار الصابوني ودار الهداية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٤) البداية والنهاية ، لابن كثير ، تحقيق: محمد عبد العزيز النجار ، نشر دار الغد العربي ، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م .
١٥) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق: د/ أحمد أحمد بدوي ، و د/ حامد عبد المجيد ، ط/ مصطفي الحلبي ، سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.
١٦) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، ط/المطبعة النموذجية ، نشر مكتبة الآداب ، القاهرة ، بدون تاريخ.
١٧) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، لجلال الدين السيوطي ،

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار الفكر ، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٨) البلاغة .. تطور وتاريخ ، د/شوقي ضيف ، ط/دار المعارف ، سنة ١٩٩٥م.

١٩) البلاغة والأسلوبية ، د/ محمد عبد المطلب (سلسلة أدبيات) ، عدد رقم (١٤) ، نشر شركة أبي الهول بالقاهرة .

٢٠) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر) ، تحقيق: محمد خلف أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، ط/ دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٩١م .

٢١) البيان العربي : دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ، د/ بدوي طبانة ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢٢) البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، نشر مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

٢٣) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ، د/ محمد زغلول سلام ، ط/ منشأة المعارف ، الإسكندرية ، سنة ١٩٨٢م.

٢٤) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، للشيخ / أحمد مصطفى المراغي ، ط/ مصطفى الحلبي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٢٥) تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها ، د / عدنان رضا النحوي ، نشر دار النحوي بالرياض ، سنة ١٤١٤هـ/١٩٨٤م .

٢٦) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، د/ محمد عبد المطلب ، (سلسلة أدبيات) ، عدد رقم (١٥) ، نشر شركة أبي الهول بالقاهرة ، سنة ١٩٩٥م

٢٧) جماليات المفردة القرآنية ، د/ أحمد ياسوف ، إشراف وتقديم: د/ نور الدين عتر ، (رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة حلب) ، ط/ دار المكتبي ، دمشق ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٢٨) جناية الحداثة المعاصرة على اللغة العربية ، د / وليد قصاب إبراهيم ، (بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ، العدد التاسع ، سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

٢٩) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص) ، ط/ دار السرور ، بيروت ، بدون تاريخ .

٣٠) الحداثة العربية حقيقتها وملامحها ، د / وليد قصاب إبراهيم ، (بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ، العدد السابع ، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) .

٣١) الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط/ دار إحياء التراث ، بيروت ، سنة ١٣٨٨هـ.

٣٢) الخروج من التيه : دراسة في سلطة النص ، د/ عبد العزيز حمودة ، (سلسلة عالم المعرفة) ، عدد رقم (٢٩٨) ، إصدار رمضان ١٤٢٤هـ / نوفمبر ٢٠٠٣م .

٣٣) خطاب النقد العربي: بنيته ، آلياته وأنساقه المعرفية ، أ.د/ محمد طه عصر ، ط/ شركة ناس للطباعة ، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٣٤) الخطيئة والتكفير ، د/ عبد الله الغدامي ، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٨م .

٣٥) دراسات وقضايا في قصيدة النثر العربية : تحولات النظرة وبلاغة الانفصال ، لعبد العزيز موافي ، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة ، سلسلة الأدب) ، سنة ٢٠٠٥م .

٣٦) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ، تحقيق: د/ محمد رضوان الداية ، ود/ فايز الداية ، نشر مكتبة سعد الدين بدمشق ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

٣٧) دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم ، د/ عاطف المليجي ، ط/ المؤلف ، سنة ٢٠٠٢م .

٣٨) دلالة السياق ، د/ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي ، ط/ جامعة أم القرى ، سنة ١٤٢٤هـ.

٣٩) ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق: د/ عبد الوهاب عزام ، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ١٩٩٥م .

٤٠) ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق: محمد عبده عزام ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٧٦م .

٤١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة الألوسي ، ط/ دار التراث بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٤٢) سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، ط/دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٤٣) سينية البحتري: شاعرية المكان ، المعادل الموضوعي ، الرسم بالكلمات ، أ.د/ زكريا النوتي ، ط/ شركة ناس للطباعة ، الطبعة الأولى ، سنة ٢٠٠٤م.

٤٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد ، ط/دار الفكر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٤٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، تحقيق: أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٤٦) شعر الواقع وشعر الكلمات : دراسات في الشعر العراقي الحديث ، د/ ضياء خضير ، نشر اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سنة ٢٠٠٠م .

٤٧) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تقديم: الشيخ حسن تميم ، مراجعة محمد عبد المنعم العريان ، ط/دار إحياء العلوم ، بيروت ، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤٨) شعرنا القديم والنقد الجديد ، د/ وهب أحمد رومية ، (سلسلة عالم المعرفة) ، عدد رقم (٢٠٧) ، إصدار شوال ١٤١٦هـ/ مارس ١٩٩٦م .

٤٩) صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ عيسى الحلبي ، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .

٥٠) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : د/مفيد قميحة ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٥١) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، د/حفني محمد شرف ، ط/ مطبعة الرسالة ، نشر مكتبة الشباب ، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

٥٢) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ، د/ محمد زغلول سلام ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٨١م ، (سلسلة نوابغ الفكر العربي).

٥٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوي ، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥٤) علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، د / صلاح فضل ، ط/ دار الشروق بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٥٥) العمدة ، لابن رشيق ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ دار الجيل ، بيروت .

٥٦) عيار الشعر ، لابن طباطبا ، تحقيق: د/ عبد العزيز المانع ، ط/ المدني ، نشر مكتبة الخانجي بمصر ، سنة ١٩٨٥م .

٥٧) الفلك الدائر على المثل السائر ، لابن أبي الحديد ، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، ط/نهضة مصر (طبعة ملحقة بكتاب المثل السائر لابن الأثير ، القسم الرابع).

٥٨) الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي ، أ.د/فوزي السيد عبد ربه ، ط/ مطبعة الحسين الإسلامية ، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٥٩) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة ، د/ سعد مصلوح ، ط/مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، سنة ٢٠٠٣م.

٦٠) في الميزان الجديد ، د/ محمد مندور ، ط/ نهضة مصر ، سنة ١٩٧٧م.

٦١) في النقد الأدبي ، د/شوقي ضيف ، ط/دار المعارف ، سنة ١٩٨٨م.

٦٢) في معرفة النص : دراسات في النقد الأدبي ، د/ حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد) ، نشر مكتبة الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٩٨٥م .

٦٣) في منظور النقد البنيوي ، د / يوسف نور عوض ، ط/ مكتبة العلم بجدة .

٦٤) في نقد الشعر ، د/ محمود الربيعي ، نشر دار غريب للطباعة والنشر بالقاهرة.

٦٥) قضايا النقد الأدبي الحديث ، أ . د/ محمد السعدي فرهود ، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، و ط/ دار الثقافة للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٨٣م.

٦٦) الكتاب ، لسيبويه ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٩م .

٦٧) الكشاف ، للزمخشري ، ط/ مصطفى الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

٦٨) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، تقديم وتعليق: د/ أحمد الحوفي ، و د/ بدوي طبانة ، ط/ نهضة مصر ، بدون تاريخ .
٦٩) المجموعة الوافية بعلمي العروض والقافية ، أ.د/عبد السلام أبو النجا سرحان ، ط/ المؤلف ، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
٧٠) المختار من نقد ت . س إليوت ، اختيار وترجمة: ماهر شفيق فريد ، تقديم: د/ جابر عصفور ، نشر المجلس الأعلى للثقافة ، سنة ٢٠٠٠.
٧١) مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ط/ دار السرور ، بيروت ، بدون تاريخ .
٧٢) المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ط/المؤلف ، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .
٧٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، لليافعي ، نشر مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٧م.
٧٤) المرايا المحدبة : من البنيوية إلى التفكيك ، د/ عبد العزيز حمودة ، نشر سلسلة عالم المعرفة ، عدد رقم (٢٣٢) ، إصدار ذي الحجة ١٤١٨هـ/ أبريل ١٩٩٨م .
٧٥) المرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية ، د/ عبد العزيز حمودة ، نشر سلسلة عالم المعرفة ، عدد رقم (٢٧٢) ، إصدار جمادى الأولى ١٤٢٢هـ/ أغسطس ٢٠٠١م .
٧٦) المصباح المنير ، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، ط/ المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٩٢٢م .

٧٧) المصطلحات الأدبية الحديثة ، د/ محمد زكريا عناني ، ط/ مطابع الأهرام التجارية ، نشر الشركة العالمية وشركة أبي الهول للنشر ، الطبعة الثانية ، سنة ٢٠٠٣م.
٧٨) مطالعات في الكتب والحياة ، للعقاد ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٨٧م.
٧٩) المطول على التلخيص ، للعلامة سعد الدين التفتازاني ، ط/ مطبعة أحمد كامل ، سنة ١٣٣٠هـ .
٨٠) المعادل الموضوعي في الشعر الجاهلي ، أ.د/ كاظم الظواهري ، نشر دار الهداية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
٨١) معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ، ط/ دار المأمون ، سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.
٨٢) معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، ط/ دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٨٣) مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي ، ط/ مصطفى الحلبي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٨٤) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق: محمد خليل عيتاني ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٨٥) من الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية ، د/ صلاح فضل ، مجلة فصول : المجلد الرابع ، العدد الأول : أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٣م.
٨٦) من روائع القرآن ، د/محمد سعيد البوطي ، ط/ دار الفارابي ،

دمشق ، سنة ١٩٧٠م .

٨٧) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة ، نشر دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٩٨٦م .

٨٨) المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر : التطور ، النظرية ، التطبيق ، د/ مديحة جابر السايح ، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ٢٠٠٣م .

٨٩) المنهج الموضوعي في النقد الأدبي ، دراسة لمحمد عزام ، نشر اتحاد الكتاب العرب ، سنة ١٩٩٩م.

٩٠) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، للآمدي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٩٢م.

٩١) مواهب الفتَّاح في شروح تلخيص المفتاح ، لأبي يعقوب المغربي ، (ضمن شروح التلخيص) ، ط/ دار السرور ، بيروت ، بدون تاريخ.

٩٢) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ط/ دار الفكر العربي ، سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

٩٣) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ط/ دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٩٤) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د / صلاح فضل ، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٣م (مكتبة الأسرة سلسلة الأعمال الفكرية) .

٩٥) نظرية اللغة في النقد الأدبي ، د / عبد الحكيم راضي ، نشر مكتبة

الخانجي ، سنة ١٩٨٠م .

٩٦) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٩٧) النقد المنهجي عند العرب ، د/ محمد مندور ، ط/ نهضة مصر ، سنة ١٩٩٦م.

٩٨) النكت في إعجاز القرآن ، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني ، والخطابي ، وعبد القاهر) ، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، ط/ دار المعارف ، سنة ١٩٩١م .

٩٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي الجرجاني ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، نشر المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

١٠٠) وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق: إحسان عباس ، ط/ دار صادر ، بيروت .



# فهرس الموضوعات